هلال رمضان

كان المسلمون ، كما هو الحال اليوم ، يعنون برؤية هلال شهر رمضان عناية فائقة ويحتفلون بليلة الرؤيا أيما احتفاء ، ولم تكن تلك الحفاوة مقصورة على عامة المسلمين بل كان الخلفاء والأمراء فى طليعة المهتمين بالصعود إلى الأماكن العالية صحبة القضاة والشهود العدول لرؤية هلال الشهر الكريم.

وقد حافظت الأقطار الإسلامية المختلفة على تقليد بعينه فى ليلة الرؤية ألا وهو الإستزادة من إنارة المساجد عند رؤية الهلال ، فتعلق المصابيح بأعالى المآذن وعلى واجهاتها ابتهاجاً بمقدم رمضان .

ففى الحرم المكى كانت المشاعيل والشموع تبث فى كل أركانه حتى يتلألأ الحرم نوراً ويسطع ضياءً حسبما لاحظ ابن جبير فى رحلته إلى مكة عام ٥٧٨ هـ (١١٨٣م) ، ولا عجب فى أن القاضى القضاعى الذى عاش بمصر فى العصر الفاطمى ورأى بنفسه عظمة الحفاوة بهذا الشهر فى مصر حيث يعد رمضان بمكة من عجائب الإسلام الأربعة ، وهى : عرض الخيل بمصر ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس، والجمعة فى بغداد .

ولدينا من عهد الخليفة العباسى المأمون سجل أنشأه أحمد بن يوسف الكاتب العباسى إلى جميع العمال فى الأمصار لحض الناس على الاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان وتعريفهم ما فى ذلك من فضل وقد جاء فى خاتمته « فإن ذلك أنساً للسابلة وإضاءة للمتهجدين ونفياً لمظان الريب وتنزيهاً لبيوت الله من وحشة الظلمة .

ومن الثابت أن بعض الخلفاء كانوا يصعدون بأنفسهم لاستطلاع هلال رمضان ، ومن بينهم هارون الرشيد الذى يذكر الأصمعى أنه صعد معه لرؤية الهلال وسأله عن معنى قول هند بنت قتبة :

نحن بنات طارق ∴ نمشى على النمارق

فقال الرشيد : الطارق : الكوكب الذى فى السماء . فقال الأصمعى أصبت يا أمير المؤمنين . فأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم .

وثمة نوادر حدثت فى ليالى الرؤية التى كانت تتم بالعين المجردة ، منها أن جماعة فيهم أنس بن مالك الصحابى ، حضروا لرؤية هلال رمضان ، وكان قد قارب المائة ، فقال أنس "قد رأيته هو ذاك

وجعل يشير إليه فلا يرونه .

وكان إياس القاضى حاضراً ، وهو أفطن أهل زمانه ، فنظر إلى أنس وإذا شعرة بيضاء من حاجبه قد أنثنت فوق عينه . فمسحها إياس وسواها بحاجبه ، ثم قال له : أنظر يا أبا حمزة فجعل ينظر ويقول لا أراه .

وحدث أن اجتمع الناس لرؤية هلال رمضان فكانوا يحدقون فى الأفق ولا يرون شيئاً ، فصاح رجل من بينهم : لقد رأيته . فاستعجبوا من قوة ابصاره وقالوا : كيف أمكنك أن تراه دوننا ؟!

فطرب الرجل لهذا الثناء وصاح : وهذا هلال آخر بجواره . فضحك الحضور منه . وطلبوا ليلة رؤيته فقال لهم أبو مهدية المضحك : كفوا فما طلب أحد عيب إلا وجده .

وصعدوا ليلة لنظره فلم يروه ، فلما هموا بالإنصراف رآه صبى وأرشدهم إليه فقال له أحدهم : بشر أمك بالجوع المضنى .

وقيل لرجل أما تنظر إلي هلال رمضان ؟ فقال : ما أصنع به ؟ "محل دين ومقرب حين «أجل» ومؤذن بالجوع" .

ونظر أعرابى إلى قوم يلتمسون هلال رمضان فقال : أما والله لئن أثرتموه لتمسكن منه بذنابى عيش أغبر !!

ولدينا فى تراث الشعر العربى ما يساير فحوى هذه الطرائف الأخيرة حيث نجد أن العديد من الشعراء القدامى لم يكونوا يلقون هلال رمضان بالبشر والحفاوة .

فها هو ابن الرومى يقول :

إنى ليعجبنى تمام هلاله ∴ وأسر بعد تمامه بنحوله

ويقول أبو الحسين بن سراج الأندلسى ، معتذراً إلى بعض أصدقائه :

وأنا أسأت فأين عفوك مجملاً ∴ هبنى عصيت الله فى شعبان

لو زرتنى والآن تحمد زورة ∴ كنت الهلال أتى بلا رمضان

فهو يجعله هلالا ولكن لغير رمضان .

ويقول بعض الشعراء أن هلال رمضان يحل بنحس على الكأس والعود :

تجلى علينا هلال الصيام ∴ بنحس على الكأس والبربط .

والحقيقة أن مجاهرة بعض الشعراء بعدم صيام رمضان والاستخفاف بمقدمه من الظواهر الملفتة فى تاريخ الأدب العربى ، وربما يدلنا ذلك على قدر الحرية التى كان يتمتع بها هؤلاء الشعراء حتى داخل بلاط الخلفاء .

فمن شعراء العصر الأموى نجد الأخطل ، وهو المسيحى الذى لا يطلب منه صيام رمضان يقول :

ولست بصائم رمضان عمرى ∴ ولست بأكل لحم الأضاحى

ولست بصائح فى جنح ليل ∴ كمثل العير حى على الفلاح

وأقبح من ذلك وأدل على رقة الدين وضعف اليقين والتهتك الصريح قول الشاعر العباسى ديك الجن الحمصى :

وحياة ظبى لم أصم عن ذكره ∴ إلا عضضت تندماً إبهامى

لأشافهن من الذنوب عظامها ∴ ينقد عنها جلد كل صيام

ويقول الأقيشر الشاعر ، وقد منعه ابن عم له يدعى سعيداً من شرب الخمر فى رمضان :

أما ترانى قد هلكت فانما ∴ رمضان أهلكنى ودين سعيد

ورغم أن الشاعر الكبير ابن الرومى كان يصوم شهر رمضان إلا أنه له أشعار غزيرة فى تصوير طول أيام الصوم منها

رمضان يزعمه الغواة مبارك ∴ صدقوا وجدك إنه لطويل

شهر لعمرك لا يقل قليله ∴ وكذا المبارك ليس فيه قليل

تتطاول الأيام فيه بجهدها ∴ فكأن عهد الأمس منه محيل

لو أنه للقاطنين مسافة ∴ لحسبت أن الشبر منه الميل

وهناك شعراء أقل شهرة لم تخل أشعارهم من التبرم بصوم رمضان يقول أحدهم :

الغوث من شهر الصيام ∴ إذ صار لى مثل اللجام

ما أن امتع بالنساء ∴ وبالطعام والمدام

ويقول آخر :

رمى رمضان شملنا بالتفرق ∴ فياليته عنا تقضى لنلتقى

لئن سر أهل الأرض طرا قدومه ∴ فأن سرورى بانسلاخ الذى بقى

ويقول ثالث :

ثقل الصوم علينا ∴ أثقل الله عليه

زارنى بالأمس بدر ∴ كنت مشتاقاً إليه

فمضى لم أقض منه ∴ حاجة كانت لديه

أما النوادر التى وردت فى المصادر العربية حول مثل هذه المعانى السابقة فهى أكثر من أن تحصى عدداً . ومنها أن أعرابيا باشر الصيام فلما اشتد عليه أفطر فقالت زوجته أو بنته : ألا تصوم ؛ فأنشدها مجيبا :

أتأمرنى بالصوم لأوردها ∴ وفى القبر صوم يا أميم طويل

وقدم اعرابى على ابن عم له بالحضر فأدركه رمضان فقيل له : لقد أتاك شهر رمضان . فقال: وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام . قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : لا ، بل بالنهار . قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا . قال : فإن لم أصم فعلوا ماذا ؟ . قالوا : تضرب وتحبس .

فصام أياماً ولم يطق أن يكمل الشهر فارتحل عنهم وهو يقول :

يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم ∴ تهيأ أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى ∴ سلام عليكم فاذهبوا بسلام

فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر ∴ على ولا مناع أكل طعام

ومر رجل بأعرابى يأكل فى رمضان ، فقال له : الا تصوم يا أعرابى ؟ فقال :

وصائم هب يلحانى فقلت له ∴ اعمد لصومك واتركنى لافطارى

وأظمأ فإنى سأروى ثم سوف ترى ∴ من ذا يصير إذا متنا إلى النار

ودخل عيينة بن حصن الفزارى ، وكان معروفا بالحمق على عثمان رضى الله عنه فقال له : هل لك فى العشاء ؟ فقال : إنى صائم . فقال عثمان : أمواصل ؟ قال : وما الوصال ؟ قال : تصوم يومك وليلتك ويومك حتى تمسى . قال : لا ولكنى وجدت صيام الليل أيسر على من صيام النهار .

وقدم أعرابى إلى الوالى فقيل له أنه أفطر فى رمضان . فقال الأعرابى :

إن الله يعلم أنى صائم ، ولكن وجدت حماوة فى فؤادى فأردت أن أطفئها بجرعة ماء .

وعلى النقيض من ذلك فإن هناك من رحب بمقدم رمضان ورفع التهانى بحلوله إلى الخلفاء والأمراء والولاة .

يقول الشريف الرضى مهنئاً الخليفة الطائع لله العباسى :

تمن قدوم صومك يا أماما ∴ يصوم مدى الزمان عن الآثام

إذا ما المرء صام عن الدنايا ∴ فكل شهوره شهر الصيام

ويقول عبد الصمد بن بابك يهنئ الصاحب بن عباد :

كساك الصوم أعمار الليالى ∴ وأعقبك الغنيمة فى المآب

ولازالت سعودك فى خلود ∴ وتبارى بالمدى يوم الحساب

ومن الشعراء المحدثين الذين رحبوا بهلال رمضان ، محمد الأخضر السائحى الجزائرى حيث يقول :

أملأ الدنيا شعاعاً ∴ أيها النور الحبيب

قد طغى اليأس عليها ∴ وهو كالليل رهيب

فترامت فى الدياجى ∴ ومضت لا تستجيب

اسكب الأنوار فيها ∴ من بعيد وقريب

ذلك عن المواقف المتباينة من رؤية هلال رمضان والترحيب بمقدمة أو ملاقاته بغير الترحيب الواجب

أما عن وقائع الاحتفال برؤية الهلال ، فهى تبدو متشابهة فى أغلب الأقطار الإسلامية إذ كان القاضى يصحبه الشهود والأعيان والمشايخ يتجهون إلى الأماكن المرتفعة العالية لاستطلاع الهلال فى موكب حافل ويظل الناس فى الطرقات ينتظرون عودة هذا الموكب لتتعالى صيحات الفرح ومظاهر الاحتفاء به إذا ما ثبتت رؤية هلال رمضان .

وقد احتفظت المصادر التاريخية بمعلومات تفصيلية عن تطور مظاهر الاحتفال برؤية هلال رمضان فى مصر التى تعد من بين الأقطار الإسلامية القليلة التى عرفت فى احتفالها بليلة الرؤية أطواراً عدة نظراً لتقلب الدول المختلفة على حكمها من أمويين وعباسيين وفاطميين ثم أسرات كردية وتركية كالأيوبيين والمماليك والعثمانيين .

ويعد القاضى أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الذى ولى قضاء مصر . سنة ١٥٥ هـ أول قاضى يحضر لنظر الهلال فى شهر رمضان . وكان القضاة من بعده فى العصر العباسى يخرجون مع الناس إلى جامع محمود بسفح جبل المقطم لرؤية الهلال فى رجب وشعبان احتياطياً لشهر رمضان ، من فوق دكة أعدت لهم على مكان مرتفع بالجبل تعرف بدكة القضاة . واستمروا ينظرون الهلال من فوقها حتى دخل الفاطميون مصر ، فحولت الدكة إلى مسجد وانقطع القضاة عن رؤية الهلال من فوق جبل المقطم أو سواه من الأماكن العالية بالقاهرة .

ولا يعود انقطاع القضاة عن رؤية الهلال إلى اختفاء دكتهم الأثيرة وإنما إلى حقيقة أن الدولة الفاطمية ، الشيعية المذهب ، كانت تعتمد على الحسابات الفلكية فى تحديد بدايات الأشهر الهجرية وإن لم يمنع ذلك الفاطميين من تنظيم الاحتفالات بغرة رمضان .

فكان القضاة يجوبون جوامع مصر (الفسطاط) والقاهرة قبل ليلة رمضان بثلاثة أيام لتفقد ما تم

إجراؤه فيها من إصلاح وفرش وتعليق قناديل .

وبلغ اهتمام الفاطميين بإنارة المساجد فى شهر رمضان حدا لجأ معه الحاكم بأمر الله إلى صياغة تنور هائل من الفضة الخالصة لإضاءة محراب الجامع الأزهر فى ليالى رمضان ولم يستطع القومة إخراجه بعد إنقضاء الشهر الكريم إلا بعد هدم الحائط المجاور للباب .

وإذا ما حل أول يوم من رمضان خرج الخليفة الفاطمى فى حرسه ورجال دولته بأزيائهم الزاهية الألوان فى موكب ترتج له القاهرة إعلاناً بحلول شهر الصوم . وفى هذا اليوم تفرق دنانير الغرة التى تضرب من ذهب خالص لتفرق فى هذا اليوم إضافة إلى خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلوى وخبز وقطع منفوخة من سكر وأرز بلبن وسكر ..

وما أن زالت دولة الفاطميين حتى عاد القضاة إلى استطلاع الهلال من فوق قمم المآذن . وتعد متذنة المجموعة التى شيدها المنصور قلاوون المملوكى بالنحاسين المرقب الرئيسى الذى كان القضاة في القاهرة يستطلعون من عليه هلال رمضان . ورغم أن هذه المتذنة لم تكن بحال من الأحوال الأكثر ارتفاعاً بين مآذن القاهرة إلا أن مواجهتها للمحكمة الصالحية حيث كان يجلس القضاة قد منحها شرف الارتباط باستطلاع أهلة الأشهر الهجرية .

وكانت طوائف الشعب المختلفة تشارك القضاة فى رؤية الهلال وخاصة التجار ورؤساء الطوائف والصناعات وأهالى الحارات ، فإذا تحققوا من رؤيته أضيئت الأنوار على الدكاكين وخرج قاضى القضاة فى موكبه تحف به الفوانيس بالشموع والمشاعل حتى يصل إلى داره ثم تتفرق الطوائف فى أحيائها معلنة الصيام .

وقد أمدنا الرحالة المغربى ابن بطوطة بوصف شيق لاستطلاع هلال رمضان فى مدينة أبيار بوسط الدلتا عندما مر عليهما فى رمضان عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) حيث يقول : "ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى وحضرت عنده يوم الركبة وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه أن يجتمع فقراء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين من شعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة لاستقبال الواقدين فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه مقدماً إياه قائلاً «بسم الله سيدنا ...» فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب فى الموضع اللائق به ، فإذا تكاملوا هناك ركب القاضى وركبوا معه وتبعهم جميع من فى المدينة من الرجال والنساء والصبيان حتى يصلوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال فإذا ما رأوه يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون وهكذا يفعلون كل سنة»

وإبان العصر المملوكى كان السلطان يجلس فى مستهل الشهر بالميدان تحت قلعة الجبل لاستعراض

أحمال الدقيق والخبز والسكر والغنم والأبقار المخصصة لصدقات رمضان بعد أن يكون محتسب القاهرة قد عرضها فى الشوارع الرئيسية .

أما فى العصر العثمانى فقد كان القضاة يخرجون عند ثبوت الرؤية فى موكب شعبى تشارك فيه طوائف الحرف ، وقد لبس أعضاء كل طائفة ملابسهم المميزة ويأيديهم نماذج من منتجاتهم بينما ينطلق جنود الانكشارية من طائفة مستحفظان المسئولية عن أمن العاصمة إلى الشوارع والأزقة وهم يصيحون "يا أمة خير الأنام ... بكرة من شهر رمضان صيام . صيام . » وفى حالة عدم ثبوت الرؤية كان النداء يتغير إلى غداً من شهر شعبان .. فطار .. فطار»

وخلال عصر محمد على وحتى مشارف القرن العشرين استمرت حفلات طوائف الشعب تشارك فى احتفالات استطلاع هلال رمضان بعدما انتقال اثبات الهلال إلي المحكمة الشرعية .

فيخرج الموكب من محافظة مصر إلى المحكمة الشرعية تتقدمه الموسيقى والجنود بطبولهم حتى إذا ثبتت رؤية الهلال تطلق الصواريخ والألعاب النارية وتطلق المدافع وتضاء المآذن ثم يمر موكب الرؤية فى أنحاء القاهرة معلناً الصيام .

واشتراك مشايخ الحرف فى هذا الموكب كان يتم فيه تمثيل التجارات والصناعات على عربات يتبارى أصحابها ، كل فى إظهار تجارته أو صناعته مثل مواكب الزهور . فهى من قبيل الدعاية والدعابة ، وفيها ما يثير الاعجاب وفيها ما يثير الضحك . وكان الشعب عن بكرة أبيه يخرج لمشاهدة هذه المواكب .

وقد تحول الموكب إلى عمل رسمى يقوم به الجنود دون سواهم بعد قرار الحكومة فى بدايات هذا القرن بالغاء التنظيمات النقابية لطوائف الحرف إذا إنفرط عقد هؤلاء وابتلعتهم آلية الحياة الحديثة ، وفقد الموكب بالتالى أهم صفاته التقليدية .

السحور والمسحراتي

السحور ، بفتح السين ، ما يؤكل وقت السحر وهو قبل الفجر ، والسحُور بالضم فعل الصائم نفسه ، وتسحر أيضاً بمعنى أكل السحور . ولما كان سحور رمضان يقع أواخر الليل حين تهدأ الجوارح وتقر الجنوب فقد اتخذت الوسائل قديماً وحديثاً لتنبيه الصائمين لوقت التسحر وبخاصة أن صحة الصوم تتوقف على معرفة نهايته بالتحديد الدقيق .

وكان المسلمون فى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرفون جواز الأكل والشرب بآذان "بلال" ويعرفون المنع بآذان «ابن أم مكتوم» وقد جاء فى الحديث الشريف أن بلالا ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم» .

وعلى الدوام كانت مآذن المساجد المكان الأثير للتسحير ، سواء عن طريق آذانين لمؤذنين يختلف صوتهما اختلافاً بينا تأسياً بما كان يحدث فى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عن طريق النداء بصيغ خاصة تختلف من بلد إلى آخر . ففى مصر على سبيل المثال كان المؤذنون بالمسجد الجامع ينادون تسحروا وكلوا واشربوا ثم يقرءون قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» ويكررون ذلك عدة مرات . ثم يقرءون قوله تعالى «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا إلى قوله تعالى «إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا» ثم يعقبون ذلك بانشاد القصائد .

وقد جرى العرف أن يقوم المؤذنون بالتسحر على أربع مرات أو تذكيرات فيقولون فى الدور الأول من التذكير

أيها النوام قوموا للفلاح

واذكروا الله الذى أجرى الرياح

إن جيش الليل قد ولى وراح

وتدانى عسكر الصبح ولاح

اشربوا عجلى قد جاء الصباح

وفى التذكير الثانى يقولون كلوا رضى الله عنكم ، كلوا غفر الله لكم ، كلوا مما فى الأرض حلالا

طيبا . كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور»

أما فى التذكير الرابع والأخير فيرددون «اشربوا وعجلوا فقد قرب الصباح الدعاء فى الأسحار مستجاب ، اذكروا الله فى القعود وفى القيام وأرغبوا إلى الله تعالى بالدعاء والثناء .

وفى المغرب كان بعض أهله ينفخون فى النفير على منارات المساجد سبع مرات . ثم ينفخون فى الأبواق بعدها سبعاً أو خمساً ، فإذا انقطعوا عن ذلك انقطع المتسحرون عن الأكل .

ومع اتساع عمران المدن الإسلامية وتباعد أخطاطها وحاراتها عن المسجد الجامع فكر المسلمون فى التغلب على الصعوبات "الصوتية" بابتكار أسلوب جديد يعتمد على الضوء الذى يمكن أن يراه أهل أبعد الأحياء ليلاً فى يسر وسهولة . وبرزت فكرة فانوس السحور" الذى يعلق بأعالى المآذن وهو مضاء منذ دخول وقت صلاة المغرب ويظل على ذلك الحال إلى قبيل آذان الفجر فإذا ما أنزل الفانوس عرف الجميع أن الصوم قد بدأ .

ومن المرجح أن ابتكار فانوس السحور قد ظهر أولا فى مكة والمدينة المنورة ومنهما انتشر سريعاً إلى كل الأقطار الإسلامية ، وقد تحدث الرحالة المغربى ابن جبير بإسهاب عن هذا الفانوس وكيفية الصعود به إلى أعلى مآذن الحرم المكى خلال زيارته للأراضى المقدسة فى رمضان عام ٥٧٨ ه .

وقد حدث بمصر فى أوائل القرن السابع الهجرى (١٣م) أن جلس بعض الأدباء بصحن جامع عمرو بن العاص فى إحدى ليالى رمضان وقد أوقد فانوس السحور فاقترح بعضهم على الأديب أبى الحجاج يوسف بن على المعروف بالنعجة " أن يصنع فيه طلباً لتعجيزه فأنشد :

ونجم من الفانوس يشرق ضوؤه

ولكنه دون الكواكب لا يسرى

ولم أر نجماً قط قبل طلوعه

إذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

فعارضه على بن ظافر مؤكداً أن هذا تعجب لا يصح لأنه والحاضرين قد رأوا نجوماً لا تدخل تحت الحصر إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف القوم فى تقريعه حتى شحذ قداح فكره وأنشد :

هذا لواء سحور يستضاء به

وعسكر الشهب فى الظلماء جرار

والصائمون جميعاً يهتدون به

كأنه علم فى رأسه نار

وخارجاً عن التسحير من أعالى المآذن بالنداء الصوتى أو بأضواء فوانيس السحور كان البعض يمارس ذلك فى الطرقات على سبيل التطوع فى بداية الأمر . فيؤثر عن عنبسة بن إسحاق والى مصر فى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) أنه كان يذهب إلى جامع عمرو ماشياً من مدينة العسكر وكان ينادى فى طريقه بالسحور . وكان الأديب ابن نقطة المزكلش المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) يسحر الناس مناديان «نياما .. قوما قوما للسحور» .

وكان أهل الاسكندرية تحت تأثير اتصالهم بالمغاربة وكذلك أهل اليمن يمارسون التسحير بدق الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة عليهم «قوموا كلوا» . وكان الشوام يفعلون ذلك بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والرقص واللهو واللعب .

ولا نعرف على وجه اليقين متى أصبح التسحير مهنة للبعض يقوم بها لقا مقابل من أهل البر والإحسان ولكننا نجد «المسحر» أو المسحراتى فى العديد من الأقطار العربية والإسلامية .

ولعل أشهر "المسحرين" فى التاريخ ذلك الذى يدعى «أبا نقطة» والذى ارتبط اسمه بابتكار شعر شعبى يسمى القوما له وزنان مختلفان وكان يسحر به الخليفة العباسى الناصر لدين الله مقابل راتب سنوى .

وقد عرف هذا النوع من الشعر بالقوما من قول بعض المغنين «قوما لنسحر قوما» .

وعندما توفى أبو نقطة أعقب ولداً صغيراً حاذقاً بنظم "القوما" ، فأراد أن يعلم الخليفة بموت أبيه ليأخذ وظيفته فلم يتيسر له ذلك ، فانتظر حتى جاء رمضان ووقف فى أول ليلة منه مع أتباع والده قرب قصر الخليفة وغنى «القوما» بصوت رخيم رقيق ، فاهتز له الخليفة وطار طرباً ، وحين هم بالانصراف انطلق ابن أبى نقطة ينشد :

يا سيد السادات ∴ لك فى الكرم عادات

أنا ابن أبى نقطة ∴ تعيش أبى قد مات

فأعجب الخليفة بسلامة ذوقه ولطف إشارته وحسن بيانه مع إيجازه ، فأحضره وخلع عليه ورتب له ضعف ما كان لوالده .

ومن الطريف أن مهنة "المسحر" لم تكن قصراً على الرجال ، إذ عملت بها بعض النساء ، وقد أنشأ فى إحداهن الشيخ زين الدين بن الوردى قائلاً :

عجبت فى رمضان من مسحرة ∴ بديعة الحسن إلا أنها ابتدعت

قامت تسحرنا ليلاً فقلت لها ∴ كيف السحور وهذى الشمس قد طلعت

وتعد وظيفة "المسحراتى" فى مصر من أبرز ما لفت أنظار زوار القاهرة من المسلمين والأجانب على

حد سواء . ويستخدم المسحراتي في طوافه ليلاً بالأزقة والطرقات طبلا صغيراً يسمى "الباز" يضرب عليه بقطعة من الجلد ثلاث دقات متتالية فاصلاً بذلك بين ما يقوله من نداءات أو أشعار .

ويصحب المسحر في جولته التي تبدأ بعيد صلاة العشاء صبيّ صغير يحمل قنديلين في إطار من الجريد . ويقفان أمام كل منزل يقطنه مسلم من المستورين القادرين على مكافأة المسحراتي . وبعد أن ينشد "عز من يقول لا إله إلا الله ومحمد الهادي رسول الله" فاصلا بينهما بثلاث دقات على "الباز" يواصل إنشاده بالنداء على صاحب البيت وإخوانه وأولاده الذكور .

ويتحاشى المسحراتي ذكر أسماء النساء إلا البنات الأبكار إذا ما وافق صاحب المنزل على ذلك ، وفي هذه الحالة الأخيرة ينشد قائلاً «أسعد الليالي إلى ست العرايس فلانه .. ويضرب طبله بعد كل تحية . وبعد أن يحيي الرجال يقول «ليقبل الله منه صلواته وصيامه وطيباته »ويختم بقوله «الله يحفظك يا كريم كل عام »

ولا يخفى على ذوي الفطنة أن السماح للمسحر بذكر أسماء البنات الأبكار إنما هو نوع من الإعلان ، المدفوع الأجر عن بنات في سن الزواج يقطن في البيت الذي يقف أمامه المسحراتي ، وفي هذه الحالة كان الرجل يؤدي جزءاً أساسياً من عمل «الخاطبة» ولو لبعض الوقت .

وتحظى البيوت الأكثر شهرة وغنى بالإضافة إلى ما سبق ببعض الأغاني الطويلة التي ينشدها المسحراتي في سجع غير موزون ويبدأها باستغفار الله والصلاة على رسوله الكريم ثم يأخذ في رواية قصة الإسراء والمعراج أو غيرها من القصص القرآنية أو حتى بعض الروايات الشعبية ذات الطابع الفكاهي ، ضارباً في كل الأحوال بطبله بعد كل قافية .

وفي إيجاز غير مخل كان المسحراتي يقوم بنفس الدور الذي يقوم به كل من الإذاعة والتلفزيون خلال شهر رمضان ببث المسلسلات الشيقة ولعله هو أصل ما يجري من اهتمام إعلامي حديثاً عند مقدم الشهر الكريم . ومهما يكن من أمر فإن المسحراتي الذي كان يخص بجهوده منازل بعينها في كل حي ، كان يحصل على أجره في عيد الفطر عند مروره بذات المنازل وذلك أما نقداً أو عيناً من كعك العيد .

ومن الأشعار التي كان المسحرون ينشدونها قولهم :

يا غفلان وحد ربك ∴ وبالتقى عمر قلبك
ما يوم تقلق على رزقك ∴ دا ربنا عالم بالحال
يارب قدرنا على الصوم ∴ وأحفظ إيماننا بين القوم
وارزقنا يا رب باللحم المفروم ∴ أحسن يا رب ماليش سنان

وقد أغرى الانتشار الواسع لما ينشده المسحرون بعض الشعراء والزجالين بالكتابة لأولئك

المسحرين، فقد كتب الشيخ محمد النجار شيخ الزجالين فى أواخر القرن الماضى عدة أدوار للمسحراتى منها قوله :

ثبت هلال رمضان وقالوا صيام

لرؤيته والشك زال باليقين

أحياكم المولى إلى كل عام

وكل عام وأنتم بخير طيبين

وله أيضاً مواويل سحر بها المسحراتية من بينها :

يا خاسر الدين يا فاطر نهار رمضان

ماهوش كدا المسلمين ما هوش كدا الإيمان

تدب يطنك وتحلف قال كمان إيمان

فاطر وكداب على الله فى نفس واحد

فى أمر تقدر عليه النسوان

قلل من الفول يا مخلول والطرشى

لحسن تغشلق وتبقى من العشا تحشى

وكان المسحراتى إذا ما قارب شهر رمضان على الانتهاء وحُش الشهر بقوله «لا أوحش الله منك يا شهر الصيام لا أوحش الله منك يا شهر القيام لا أوحش الله منك يا شهر الولائم . لا أوحش الله منك يا شهر العزائم . لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود .»

ويعد شاعر العامية المصرى «فؤاد حداد» أشهر المعاصرين الذين كتبوا للمسحراتى وقد لاقت أشعاره مشهرة وانتشار «واسعاً ولاسيما بعد أن قام بانشادها الفنان الكبير سيد مكاوى .

الكنافة والقطائف

ومع أن رمضان هو شهر الصيام إلا أنه أحفل شهور السنة بالولائم والموائد التى تزخر بأنواع الطعام والحلوى .

ويسرف المسلمون فى هذا الخصوص ، وهو ما يتناقض مع مغزى صيام رمضان الذى أريد به أن يهذب النفوس ويسمو بالأرواح ويصفى النفوس من زخرف الدنيا وشهواتها . والعرب جميعاً يحبون الحلواء منذ القدم ، حتى أن معمر العرب «أبا عبيدة» كان يقول أن كل طعام لا حلواء فيه يعد ناقصاً عند العرب . والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء والعسل وقد سأله ابن عباس : أى الشراب أفضل ؟ قال : الحلو البارد . أى العسل . وفضلاً عن ذلك فقد كان العرب يعتقدون أن تناول الصائم للحلواء يساعده على استرداد قوته وفى ذلك يقول "وهب بن منبه" إذا صام الرجل زاغ بصره فإذا أفطر على الحلوى رجع إليه بصره

ومع أن الحلاوات تؤكل فى كل زمان ومكان ، إلا أن الكنافة والقطايف أخص أنواعها بالشهر الكريم ولا يرد اسم رمضان أمام المصريين مثلاً إلا وتمثلت فى مخيلاتهم الكنافة والقطايف » .

وقد بلغ من شهرتهما أن جلال الدين السيوطى الفقيه والمؤرخ المصرى الذى عاش فى العصر المملوكى جمع ما قيل فيهما نثراً وشعراً فى كتاب لطيف أسماه «منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف» .

أما عن أصل الكنافة ، فيذكر ابن فضل الله العمرى أن أول من اتخذ الكنافة من العرب هو معاوية بن أبى سفيان ، وكان يأكلها فى السحور ، وذلك أنه شكا إلى طبيبه الجوع فوصفها له ، وإن ذكر بعض المؤرخين أنها صنعت خصيصاً لسليمان بن عبد الملك .

ومهما يكن من أمر الروايات التاريخية فإن الكنافة قد لاقت رواجاً ملحوظاً فى كل من مصر والشام ثم فى بقية الأقطار العربية والإسلامية بدرجات متفاوتة ، ويبلغ من اهتمام أهل مصر بها حدا أثار انتباه الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى القرنين ١٨ و١٩ فأسهبوا فى وصف طرق عملها وأطلقوا على الكنافة اسم «المكرونة المصرية» .

وحتى اليوم تنتشر صناعة الكنافة والقطائف فى أرجاء مصر ريفاً وحضراً وحتى فى المناطق شبه الصحراوية مثل البحر الأحمر ، ولعل ذلك الانتشار الواسع هو الذى حدا بأحد المحتسبين الأتراك فى

عصر محمد على أن يتخذ من الأنية النحاسية المستديرة التى تنضج الكنافة عليها ، أداة لتعذيب الكنفانية الذين يرفعون أسعارها بدلاً من الذهاب بهم إلى ساحة القاضى .

ويحوى الأدب العربى سجلاً حافلاً بالقصائد التى نظمها أصحابها فى الكنافة والقطائف ، وكلاهما يسوى من الدقيق المرق بالماء مع الاختلاف فى الشكل وطريقة الإعداد بعد ذلك ففى حين تكون الكنافة على شكل شعيرات طويلة تسقى "بالقطر" أى السكر المذاب بعد تمام نضجها ، نجد أن القطائف تكون على شكل الدائرة الصغيرة المخملية الملمس ولذا سماها العرب القطائف نسبة إلى قماش القطيفة ذات الخمل ، وهى تقلى بالزيت بعد حشوها وتسقى ، قدئ ، بدهن الجوز وحالياً بالقطر أو السكر المذاب .

ويعد أبو الحسين الجزار المصرى الذى عاش فى عصر المماليك أكثر الشعراء وصفاً للكنافة والقطايف .

يقول الجزار الشاعر فى وصف الكنافة :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكر دائم الدُّر

وتبا لأوقات المخلل إنها

تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

وله أيضاً :

تالله مالثم المراشف .·. كلا ولا ضم المعاطف

بألذ وقعاً فى حشا .·. ى من الكنافة والقطائف

وقال سعد الدين بن عربى :

وقطايف مقرونة بكنافة .·. من فوقهن السكر المذرور

هاتيك تطربنى بنظم فائق .·. ويروقنى من هذه المنثور

ويقول شهاب الدين الهائم فى الكنافة :

إليك اشتياقى يا كنافة زائد .·. ومالى عناء عنك ولا صبر

فلا زلت أكل كل يوم وليلة .·. ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وقد أكثر الشعراء فى وصف القطائف التى يبدو أنها كانت مفضلة عن الكنافة ، ولما لا وهى التى كانت تشكل على سبيل المثال القاسم المشترك الأعظم فى الولائم التى كان الفاطميون فى مصر يولونها فى الافطار والسحور إضافة إلى اهتمام الناس بحشوها بأنواع النقل وغمرها بعد القلى فى

دهن الجوز .

وفى تفضيل القطائف على الكنافة يقول سعد الدين بن عربى :

قال القطائف للكنافة ما ∴ بالى أراك رقيقة الجسد

أنا بالقلوب حلاوتى حشيت ∴ فتقطعى من كثرة الحسد

وتغزل أبو هلال العسكرى فيها فقال :

كثيفة الحشو ولكنها ∴ رقيقة الجلد هوانيه

رشت بماء الورد أعطافهما ∴ منشورة الطى ومطوية

كأنما من طيب أنفاسها ∴ قد سرقت من نشر مارية

جاءت من السكر فضية ∴ وهى من الأدهان تبرية

ويقول الشاعر المملوكى السراج الوراق فيها :

قطائفك التى رقت جسوماً ∴ لماضغها كما كثفت قلوباً

كغيم رق لكن فيه قطر ∴ غدا القفر الجديب به خصيبا

وقال سيف الدين بن قزل المنشد :

وقطايف مثل البدو ∴ رأتت لنا من غير وعد

قد سقيت قطر النبا ∴ ت وطيبت بالماء ورد

فحسبتها لما بدت ∴ فى صحنها أقراص شهد

وفى القطائف أيضاً يقول ابن المعلم المرصص :

وحقك ما أوليتنى من قطائف ∴ ألذ وأحلى من وصال القطائف

وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة ∴ ألم تراها ملفوفة كالصحائف

وهو يريد بالقطائف فى آخر البيت الأول «اللاتى يشين هوناً»

ويقول شاعر آخر :

قطائف قد حشيت باللوز ∴ والعسل "الماذى" والجوز

تسبح فى "آذى" دهن الجوز ∴ سررت لما وقعت فى حوزى

سرور "عباس" بقرب "فوز"

والماذى هو العسل الأبيض والآذى : الموج أما الشطر الأخير فهو إشارة إلى عباس بن الأحنف

وفوز معشوقته .

وإلى جانب الكنافة والقطائف اشتهرت "الزلابية" كواحدة من حلواء رمضان التى يكثر عملها خلال هذا الشهر ، وإن كانت أقل حظاً من سابقتيها ، وفيها يقول ابن الرومى وهو يصفها ويصف قاليها :

ومستقر على كرسيه تعب ∴ روحى الفداء له من منصب تعب
رأيته سحراً يقلى زلابية ∴ فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله ∴ فيستحيل شبابيكا من الذهب

وكان ارتفاع أسعار هذه الأصناف السابقة يثير سخط الشعب وشكواه فى بلد مثل مصر . ففى سنة ٩١٧ هـ أرتفعت أسعار الكنافة والقطائف وغيرها من الحلواء التى تصنع فى رمضان ، فرفعت شكوى منظومة إلى المحتسب حوت أنواعاً مختلفة من الحلواء منها :

لقد جاء بالبركات فضل زماننا ∴ بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكتها شفاء الغانيات حلاوة ∴ ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها ∴ يبدد فيها ما له ويضيع
فكم ست حسن من أصابع زينب ∴ بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم "كعكة" تحكى أساور فضة ∴ وكم "عقدة" حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا فى مصر من "قاهرية" ∴ كذاك "المشبك" وصله ليس يقطع
وفى ثوبه المنقوش جاء برونق ∴ فيا حبذا أنوار حين تسطع
وقد صرت فى وصف القطايف هائماً ∴ ترانى لأبواب "الكنافة" أقرع
فيا قاضيا بالله محتسبا عسى ∴ ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

ومن أصناف الحلوى التى كانت شهيرة ويألف العرب أكلها فى شهر رمضان "الفالوذج" وهى تعمل من الدقيق والماء والعسل . وحسبما جاء فى المعاجم اللغوية فهى لفظة معربة عن "بالوذة" (بالوظة) . وطبقاً لرواة الحديث فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ »

وتشير أخبار العرب إلى أن أول من عمل الفالوذ فى بلاد العرب "عبد الله بن جدعان" ، وكان سيداً شريفاً من مطعمى قريش كهشام بن عبد مناف فقد وفد هذا القرشى على كسرى وأكل لديه الفالوذ ، فابتاع من عنده غلاماً يصنعه وقدم به مكة فصنع الفالوذ ووضع موائده بالأبطح إلى باب الكعبة ثم نادى : من أراد أن يأكل الفالوذ فليحضر .

واتفق أن حضر هذه الواقعة التاريخية الشاعر المعروف أمية بن أبى الصلت فسجل بأبياته أول

وصف عربى للفالوذ أو الفالوذج وهو يمدح ابن جدعان فقال :

لكل قبيلة رأس وهـاد ∴ وأنت الرأس تقدم كل هادى

لـه داع بمكـة مشمعل ∴ وآخر فوق دارته ينـادى

إلى ردح من الشيزى ملاء ∴ لبـاب البر يلبك بالشهاد

وكان لابن جدعان جفان يأكل منها القائم والراكب ويروى أن صبياً وقع فى إحداها فغرق ، فضرب بها المثل فى العظم .

وسمع الحسن البصرى من يعيب الفالوذ فقال : لباب البر ، بلعاب النحل بخالص السمن . ما عاب هذا مسلم قط . ثم تلى قوله تعالى :-

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وثمة طرائف تناقلتها المصادر العربية تدور جميعها حول الفالوذج . منهما أنه قيل لأبى الحارث جمين : ما تقول فى الفالوذج ؟ فقال : وددت أن الموت والفالوذج اعتلجا فى صدرى إلى يوم القيامة! والله لو أن موسى لقى فرعون بفالوذج لآمن ولكن لقيه بعصا !! .

وجلس أعرابى على مائدة سليمان بن عبد الملك الأموى فأتى بفالوذج فأخذ الأعرابى يأكل منه بشراهة . فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابى ؟ فقال بلى يا أمير المؤمنين ، إنى لأجد ريقاً هيناً ومزدرداً ليناً وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه .

فضحك سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابى ؟ فأنهم يذكرون أنه يزيد فى الدماغ .

فقال الأعرابى : لا تصدق يا أمير المؤمنين ، فلو كان الأمر كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل .

وقيل لأعرابى على مائدة بعض الرؤساء : لم يشبع أحد من الفالوذج إلا مات . فأمسك الرجل قليلاً يفكر ويقدر ، ثم ضرب فيه بأصابعه وقال : أستوصوا بعيالى خيراً .

وجلس الغاضرى يأكل فالوذج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأموى فجعل الغاضرى يأكل ويسرع، فقال يزيد : أرفق بنفسك فإن الإكثار منه يقتل . فقال الغاضرى : منزلى على طريق المقابر ، وما رأيت جنازة قط قيل إن صاحبها مات من أكل الفالوذج .

وجلس أبو هفان الشاعر وأبو العيناء على مائدة فيها فالوذج حار . فقال أبو هفان لأبى العيناء : هذا آخر مقامك من جهنم .

فقال أبو العيناء ، وكان حاضر الجواب . إن كان حاراً فبرده بشعرك .

وبعث رجل إلى مزبد المدنى بفالوذج قليل الحلاوة . فقال مزبد : ينبغى أن يكون هذا الفالوذج قد عمل قبل أن يوحى ربك إلى النحل .

وكان أحمد بن خالد وزير المأمون العباسى مضرب المثل فى الشراهة . وقد قيل أنه ولى رجلا كورة

جليلة (مدينة) لأنه أهدى إليه خوانا من الفالوذج .

أما الشعراء فلم يهملوا أمر الفالوذج ، وقد قال أحدهم :

ولا طفه بالشهد المخلق وجهه ∴ وإن كان بالألطاف غير خليق

كأن إصفرار اللوز فى جنباته ∴ كواكب تبر فى سماء عقيق

ويقول العسكرى فى وصف الفالوذج :

حمراء فى بيضاء فضية ∴ وظرف كافور وحشو الخلوق

يطوف الدهن بأرجائه ∴ إطافة الدمع بجفن المشوق

كأنما اللوز بحافاته ∴ أنصاف در ركبت فى عقيق

وكان ينافس الفالوذج نوع آخر من الحلوى هو "اللوزينج" وهو شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز وكان العرب يسمونه قاضى قضاة الحلاوات . وقد قال البعض أن التمر «يسبح» فى البطن فرد عليه آخر على هذا التقدير اللوزينج يصلى فيهاالتراويح .

ويبدو أن المنافسة كانت بين الفالوذج واللوزينج أو بالأحرى بين آكليهما حادة شديدة .

ومما يروى أن الرشيد وأم جعفر زبيدة اختلفا فيهما أيهما أطيب ؟ .

فاحتكما إلى القاضى أبى يوسف ، فقال يا أمير المؤمنين لا يحكم بين غائبين إذا حضرا الخصمان حكمت بينهما .

فجئ إليه بطبق من كل منهما ، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن ذاك القمة حتى أتى عليهما . فقال له الرشيد أحكم بينهما . فقال : والله يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضى لأحدهما جاء الآخر بحجته. فضحك الخليفة وأمر له بألف دينار ، وأمرت له زبيدة بألف دينار إلا واحداً تأدباً مع الخليفة.

ولم يغادر ابن الرومى اللوزينج دون أن يترك لنا أبياتاً فى وصفه من بينها :

لا يخطئنى منك لوزينج ∴ إذا بد أعجب أو أعجبا

لو شاء أن يذهب فى صحنه ∴ لسهل الطيب له مذهبا

يدور بالنفحة فى جامة ∴ دوراً ترى الدهن له لولبا

مستكشف الحشو ولكنه ∴ أرق جلداً من نسيم الصبا

من كل بيضاء يود الفتى ∴ أن يجعل الكف لها مركبا

لو أنه صور من خبزه ∴ ثغر لكان الواضح الأشنبا

وإذا كان اللوزينج ومنافسه الفالوذج قد أختفيا الآن من الموائد الرمضانية فإن الكنافة والقطايف قد نجحا فى مقاومة أصناف الحلوى المختلفة عبر الزمان وبقيا فارسا الحلبة فى رمضان دون منازع أو منافس .

هلال شوال والعيد
كعك العيد

ليس ثمة خلاف فى تراثنا العربى على الترحيب بهلال شوال الذى تحمل رؤيته بشرى الاحتفال بعيد الفطر ، وكان أحب الأهاليل إلى الناس كافة ، وإلى الشعراء بخاصة لأنه يرفع عنهم قيود الصيام .

ويضرب بهلال شوال المثل للشئ البهيج الذى يسر به الناس ويحتفلون بثبوت رؤيته والنظر إليه .

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز فى وصف فتاة جميلة :

مر بنا والعيون ترمقه ∴ فى قد غصن وحسن تمثال

مخلته والعيون تنظره ∴ من كل فج هلال شوال

ويقول أبو محمد البطليوسى فى وصف فرس :

كأن هلال الفطر لاح بوجهه ∴ فأعيننا شوقاً إليه تميل

ومن الشعراء الذين أبدعوا فى وصف هلال شوال ابن المعتز ، وفيه يقول :

وهلال شوال يلوح ضياؤه ∴ وبنات نعش وقف بازائه

كبنانه من مخلص لما بدا ∴ وجه الوزير دعا بطول بقائه

ويقول فيه أيضاً السرى الرفاء :

قد جاء شهر السرور شوال ∴ وغال شهر الصيام مغتال

أما رأيت الهلال يرمقه ∴ قوم لهم - أن رأوه - اهلال

كأنه قيد فضة جرح ∴ فض عن الصائمين فاختالوا

ويقول أيضاً :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق ∴ على لبات زرقاء اللباس

وله كذلك :

وكأن الهلال نون لجين ∴ غرقت فى صحيفة زرقاء

ويقول أيضاً :

ولاح هلال الفطر نضوا كأنه ∴ سنان لواه الطعن فى رأس عامل

ويقول أحد الشعراء فى هلال شوال :

أسقنى الكأس يا نديمى فقد عا ∴ د بعيد الصيام عهد الوصال

مـا رأينـا الهـلال حـتى رأينا ∴ كل شـخص منا شبيـه الهلال

وقد اجتمع عدد من الشعراء بمصر فأنشدهم ابن النبية قول مؤيد الدين الطغرائى فى هلال الفطر :

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ∴ وأترعـوا الكأس بصفـو المدام

هذا هـلال العيد قد جاءنا ∴ بمنجل يحصد شـهر الصـيـام

ثم تبارى ابن النبيه والشاعر الأندلسى "على بن ظافر" فى انشاء بيتين يقول الأول الشطرين الأول منهما على أن يكمل الأندلسى وهما :

أنـظــر إلــى هــلال بـدا ∴ يذهـب مـن أنـواره الحندسـا

كمنجل قد صيغ من فضة ∴ يحصد من زهر الدجى نرجسا

ثم أضاف على بن ظافر :

أما ترى الهلال يخفى أنجم الأفق ∴ بـنــور وجـهــه الوسـيــم

كمنجـل مـن فضـة يحصـد مـن ∴ روض الظلام نرجس النجوم

ومن الطرائف التى تتصل برؤية هلال شوال أن الملك المعظم الشاعر الأديب عيسى الأيوبى كان قد صعد إلى مئذنة الجامع الأموى لاستطلاع هلال شوال ومعه القاضى والشهود ، فلم ير الهلال أحد منهم ولكن رأته جارية من محظياته فقال الملك المعظم لابن القصار الشاعر :

قل فى ذلك شيئاً فقال ابن القصار :

توارى هلال الأفق عن أعين الورى

وغطى بستر الغيم زهوا محياه

فلمـا أتـــاه لاجتــلاء شـقـيـقـه

تبـدى لـه دون الأنـــام فـحياه

وكثيراً ما ارتبط الترحيب بهلال شوال عند بعض الشعراء بالإشارة إلى قرب انتهاء رمضان كما نرى فى قول ابن المعتز :

قد قرب الله منه كل ماشسعا ∴ كـأننى بهـلال الفطـر قـد لمعـا

فخذ لفطرك قبل العبد أهبته ∴ فأن شهرك فى الواوات قد وقعا

وكان القدماء يطلقون على ما بعد العشرين من الشهر «الواوات» .

أما تهانى عيد الفطر فهى كثيرة فى الأدب العربى ، ومنها ما التزم بالتهنئة الخالصة كرائية البحترى التى يهنئ فيها المتوكل العباسى بصومه رمضان وبعيد الفطر ويصف فيها خروجه للصلاة ويشير إلى خطبته البليغة وفيها يقول :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم ∴ وبسنة الله الرضية تفطر

فانعم بعيـد الفطر عيداً إنه ∴ يوم أغر من الزمان مشهر

ولم يعدم الأمر من جعل تهانيه مشوبة بالفتك والمجون مثلما حدث فى تهنئة الصابى لعضد الدولة البويهى ومنها :

أسـيدنا هنئت نعماك بالفطر ∴ ووقيـت مـا تخشـاه من نوب الدهر

مضى الصوم قد وفيته حق نسكه ∴ ووفـاك مكتـوب المثوبة والأجر

وللـفـطر رسم للسرور وسـنـة ∴ ومـثلـك مـن أحيـا لنـا سنة الفطر

ولابـد فيه مـن سـمـاع وقهوة ∴ تقضى بهـا الأوطـار من لذة السكر

نواصـل قـصفـا بـين يـوم وليلة ∴ دراكاً فنستوفى الذى فات فى الشهر

فمـر بالـذى نبغى وكن عند ظننا ∴ فـلا زلـت فيـنـا نافـذ النهى والأمر

ولعل أبو نواس هو أكثر الشعراء تشفياً فى رمضان وترحيباً بشوال إذ يقول ، سامحه الله ، :

مـن شـوال علينـا ∴ وحقيـق بامتنـان

جاءنا بالقصف والعز ∴ ف وتغـريد القيان

أحسـن الأشـهـر لى ∴ أبعـدها من رمضان

ونسج آخر على منواله فقال :

أقول لصاحبى وقد بدا لى ∴ هلال الفطر من خلل الغمام

سنسكر سكرة شنعاء جهراً ∴ وننعر فى قفا شهر الصيام

أما الاحتفال بيوم الفطر فإن أبرز مظاهره على مر الزمان ذلك الاهتمام الكبير بأداء صلاة العيد التى يتقدمها دوماً الخلفاء والسلاطين وعمال النواحى وأرباب الوظائف كالقضاة والعلماء فى الدول المختلفة .

وتعد الدولة الفاطمية فى طليعة الدول الإسلامية التى أهتمت بالاحتفال بيوم الفطر ، وكانت لهم فيه طقوس خاصة تلمح أثرها إلى اليوم فى كل من مصر وبلاد الشام .

ففى يوم العيد يجلس الخليفة فى قاعة الذهب ليظهر الفطر ويجلس على يمينه الوزير ثم يجلس بعده الأمراء كل فى المكان المخصص له ويتبعهم الرسل الواصلون من جميع الولايات وهم وقوف فى آخر الإيوان .

وبعد أن يستعرض الخليفة الدواب بفرسانها ويتلى القرآن بمجلسه يحمل إليه فطوره الخاص المعطر بالمسك والعود والكافور والزعفران مع أنواع البلح الملونة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره ، فيأخذ ثمرة يفطر عليها ويناول مثلها للوزير فيظهر الفطر عليها ويفعل ذلك مع بقية المدعوين فيجعلون فى أكمامهم ما يناولهم إياه بعد تقبيله . ثم يأذن الوزير بناء على أمر الخليفة بافتتاح السماط والسماح للحاضرين بالأكل منه وأخذ ما يشتهون .

وبعد سماط الإفطار يخرج الخليفة مع حواشيه إلى مصلى العيد خارج باب النصر وهى مصلى كبيرة قائمة على ربوة وجميعها مبنى بالحجر ولها سور وفى صدرها قبة كبيرة بها محراب والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلى مكشوفاً تحت السماء

ويكون خروج الخليفة من باب خاص بالقصر يعرف بباب العيد ويستعرض الجند فى طريقه إلى المصلى ويعود بعد الصلاة فيدخل من ذات الباب وفى القصر يمد سماط الكعك ليأكل الجميع منه حتى قرب الظهر

وكان موكب العيد فى العصر الفاطمى حافلا بأنواع من المرح ليشاهدها الخليفة عند ذهابه وإيابه من المصلى ، ويتولى القيام بها طائفة من أرباب الرواتب تعرف بالبرقية أو صبيان الخف . فيركب جماعة منهم على خيول فيركضون وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ويعود ويركب من الجانب الآخر ويعود وهو على حاله لايتوقف ولا يسقط منه شئ إلى الأرض. ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف . وإذا عاد الخليفة من صلاة العيد مارأ بباب النصر وجد بعض هؤلاء البرقية قد مدوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض حبلا عن يمين الباب وحبلا عن شماله . وينزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون وفى أيديهم الرايات وخلف كل واحد منهم رديف وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه .

وإلى الفاطميين يرجع الحد الأوفى من اهتمام المصريين المحدثين بعمل كعك العيد ، ولانقول كل الفضل ، ذلك لأن الدولة الإخشيدية قد سبقت الدولة الفاطمية فى العناية بكعك العيد ، حتى أن أحد الوزراء الإخشيديين أمر بعمل كعك حشاه بالدنانير الذهبية ، وقد أطلق عليه آنذاك « أفطى له » أى للدينار الذهبى بداخله .

أما الفاطميون فقد توسعوا فى العناية بكعك العيد حتى أنهم جعلوا له إدارة حكومية خاصة

عرفت "بدار الفطرة" كانت تهتم بتجهيز الكميات اللازمة من كعك وحلوى وكعب الغزال لتوزيعها ولإعداد دسماط العيد الذى يحضره الخليفة . وكان العمل فى إعداد هذه الكميات الهائلة يبدأ من شهر رجب وحتى منتصف رمضان .

وكان يرصد لإعداد هذه الأصناف ميزانية ضخمة بلغت فى بعض السنوات ١٦ ألف دينار ذهبى (وزن الواحدة ٤.٢٥ جرام) وذلك لشراء الدقيق وقناطير السكر واللوز والجوز والفستق والسيرج والسمسم والعسل وماء الورد والمسك والكافور .

ويوضع إنتاج «دار الفطرة» فى سماط هائل ليبدو كجبل عظيم أمام شباك القصر الفاطمى حيث يجلس الخليفة بعد الصلاة ليرى بعينى رأسه الناس وهى تنهب الكعك لتأكله أو تهديه أو تبيعه فى الأسواق البعيدة عن القاهرة .

ورغم محاولات صلاح الدين الأيوبى للقضاء على كل ما يمت بصلة للخلافة الفاطمية الشيعية المذهب ونجاح جهوده فى القضاء على "التشيع" فى مصر ، إلا أن كعك العيد ظل ظاهرة تستعصى على كل مسعى لوقفها ، حتى أن بعض أمراء البيت الأيوبى أحتفظوا بالطباخات اللاتى عملن فى القصور الفاطمية لإنتاج الكعك ، ومن أشهرهن طباخة كانت تعمل كعكاً شهياً عرف باسمها «كعك حافظة»

وبلغ اهتمام المماليك بعكك العيد مبلغاً كبيراً حتى أنهم اعتبروه من أوجه البر والصدقات التى توزع على الفقراء حتى لا يحرموا منه فى عيد الفطر . ونجد فى "وقفيات" العصر المملوكى أكثر من إشارة لعمل الكعك وتوزيعه على موظفى الجوامع والمدارس وعلى المتصوفة بالخوانق ، وكذلك على تلاميذ المدارس وأطفال الكتاتيب .

ومن أشهر وثائق الوقف التى تحدثت عن كعك العيد ، تلك التى تخص مدرسة الأميرة "تترالحجازية" حيث نص فيها على توزيع الكعك «الناعم والخشن» على موظفى مدرستها المشيدة بحى الجمالية .

ولو التزمت وزارة الأوقاف المصرية «بالنصوص الحرفية» لوثائق الوقف المملوكية لتحول جزء معتبر من أنشطتها إلى انشاء مخابز لإنتاج كعك العيد .

وكان سكان مصر ، ولازلوا بالطبع ، يتهادون الكعك ويتنافسون بإجادته فيحدثنا محمد بن السعودى ، وكان يسكن درب الأتراك بجوار الجامع الأزهر أنه فى سنة بضع وستين وسبعمائة جاء فى عيد الفطر من الجيران أصناف الكعك على عادة أهل مصر متى أمتلأ بها "زير" كبير ، لأن هذا الخط كان يسكن به الأكابر والأعيان .

ونظر لرواج الكعك فى عيد الفطر كان سوق الحلاويين بالقاهرة (داخل باب زويلة) يتيه فخراً خلال

العشر الأواخر من رمضان بما يعرض فى حوانيته من أصناف الكعك التى تخرج عن كل حصر .

وكان للفن أيضاً دوره فى صناعة الكعك ، فعملت له القوالب المنقوشة بشتى أنواع الزخارف الإسلامية ولا سيما الهندسية والنباتية منها وكانت بعض هذه القوالب على هيئة الحيوانات والطيور .

وضمن مقتنيات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة مجموعة من قوالب الكعك مكتوب على بعضها عبارات متنوعة منها «كل هنيا» و«كل واشكر» و«كل واشكر مولاك» و«بالشكر تدوم النعم» .

وإلى يومنا هذا يواظب المصريون على عاداتهم التقليدية فى عمل كعك العيد والتفاخر بما أنفقوا فى إعداد من أموال لشراء السمن والنقل . ولم تفلح عوادى الدهر ولا ضيق ذات اليد فى تقليص مساحة الاهتمام الشعبى بهذا الكعك .

ويبدو أنه قدر لكعك العيد أن يظل بحكم نوع خاص من «القصور الذاتى التاريخى» واحداً من أخص وأهم مظاهر الاحتفال بعيد الفطر فى مصر ،مهما تغيرت المذاهب والدول وارتفعت أو انحدرت مستويات الأجور والدخول تماماً كى أراد له الفاطميون ... ويا لها من إرادة .

كسوة العيد

كسوة العيد هى اليوم بين أهم مظاهر الاحتفال بعيد الفطر المبارك وهى ليست وليدة هذا العصر وإنما تضرب بجذورها إلى حيث دولة الخلافة الإسلامية فى عصور بنى أمية والعباس والتى كانت رسومها تقضى بتفريق الخلع على أرباب الوظائف فى الدولة خلال شهر رمضان ليبدو موكب الخليفة وهو فى طريقه لأداء صلاة العيد قشيبا ومزادنا بألوان الملابس الرائقة والجديدة .

وكما هو شأنهم دائماً فقد وجه الفاطميون عناية خاصة لكسوات العيد بعدما أسسوا دولتهم الكبرى فى مصر والشام وشمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وذلك فى إطار عنايتهم برسوم البلاط والدولة .

وقد احتلت «كسوة العيد» المكانة الأولى بين إجراءات احتفال الفاطميين بعيد الفطر حتى أن هذا العيد كان يعرف فى عصرهم بعيد الحلل ، لكثرة ما يوزع فيه من كسوات جديدة على الخاصة والعامة.

وكانت "دار الكسوة" هى الجهة المنوط بها توزيع كسوات العيد على أربابها بدءاً من الوزير ومروراً بالأمراء وكبار وصغار موظفى الدواوين وانتهاء بالفراشين والمستخدمين فى الدولة .

ويقوم صاحب ديوان الإنشاء بكتابة "رقاع" من الورق توضع فى كل كسوة خاصة بأحد وجوه الدولة . ومن هذه الرقاع واحدة كتبها "ابن الصيرفى" لتوضع فى كسوات عيد الفطر عام ٥٣٥ هـ وقد جاء بها «ولم يزل أمير المؤمنين منعماً بالرغائب موليا إحسانه كل حاضر وغائب مجزلا حظهم من منائحة ومواهبه .. وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه وأحراهم باستنشاق نسيمه وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند نصبه و تقسيمة ولما أقبل هذا العيد السعيد والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمة فيء بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال ولا يبقى بعدها مطمع للآمال ... »

أما المسئول عن " دار الكسوة" فكان يعرف "بصاحب المقص" وهو مقدم الخياطين ، ولرجاله مكان يقومون فيه بالخياطة والتفصيل ، وهو يعمل وفق الأوامر الصادرة إليه من الخليفة وحسب ما تدعو إليه الحاجة . ويحمل الى دار الكسوة ما يعمل من نسيج وملابس من دور الطراز بمدن تنيس ودمياط والإسكندرية .

ودور الطراز هى مصانع النسيج الحكومية التى تشرف الدولة على منتاجاتها وكلمة "طراز" معربة من الفعل «ترازيدن» ومعناها يوشى أو يطرز ، وإن استخدمت فى مصطلح العصور الوسطى لتدل

على العبارة الرسمية التى تتخذها الدولة شعاراً لها وتقوم بتسجيلها على النسيج والعملة أو غير ذلك من الأشياء ذات الطابع الرسمى .

فمصر مثلا كان طرازها الذى يوضع على ورق البردى يشير إلى عقيدة النصرانية فى الأب والابن والروح القدس ثم صار بدءاً من عهد عبد الملك بن مروان يحمل الإشارة إلى دين التوحيد «لا إله إلا الله وحده . محمد رسول الله» .

ودور الطراز على نوعين ، "دار طراز العامة" وهى تصنع منسوجات تباع فى الأسواق أو تهدى لموظفى الدولة فى المواسم والمناسبات ، ودار طراز الخاصة" وانتاجها موقوف على الخليفة وآل بيته فقط . وهذه الدور هى التى تسلم كسوات العيد إلى دار الكسوة .

وكان بدار الكسوة قسم خاص بملابس الخليفة تتولى الإشراف عليه إمرأة تنعت "بزين الخزان" وتحت إمرتها ثلاثين جارية «فلا يغير الخليفة أبداً ثيابه إلا عندها» .

ومهما يكن من أمر هذه الدار ومشرفيها ، فإن الدولة كانت تخصص ميزانية ضخمة للإنفاق على كسوة العيد . وقد بلغت النفقة عليها ، فى عام ٥١٥ هـ على سبيل المثال حوالى عشرين ألف دينار ذهبى ، صنعت بها ملابس من الحرير الموشى بالذهب والديباج الملون (القطيفة) والقطن والكتان المطرز وأقمشة أخرى لا نعرف الآن مدلولات أسمائها مثل «السقلاطون» و"البوقلمون" .

ولا شك فى أن الذين كانوا ينعمون بمثل هذه الكسوات الخليفية كانوا يتباهون بها على العامة ، لأن تلك الملابس التى تحمل فى طرازها اسم الخليفة وسنة الإهداء هى فى حقيقة الأمر بمثابة الأوسمة والنياشين والأنواط فى العصر الحديث .

وتقضى الأوامر التى كانت تصدر لدار الكسوة بضرورة توصيل الكسوات إلى أصحابها قبيل ليلة العيد ، حتى إذا ما خرج الخليفة لصلاة العيد خارج باب النصر مارا بباب فى قصره يعرف بباب العيد ، كانت القاهرة أشبه بكرنفال للملابس الجديدة الزاهية الألوان والتى يرتديها الأمراء وموظفو الدواوين والجنود وكافة أصحاب الرواتب فى الدولة .

وقد تقلصت عادة إهداء الدولة لكسوة العيد بعد سقوط الخلافة الفاطمية ورويداً رويداً اقتصرت ظاهرة إهداء "الخلع" على الأمراء وكبار الموظفين عند توليهم لمناصبهم فقط .

ولم يمنع ذلك أصحاب الخير من السير على سنة الفاطميين بإهداء كسوات فى عيد الفطر ، فقد حرص مؤسسو المدارس والمساجد والكتاتيب فى العصر المملوكى على النص فى وثائق أوقافهم المعينة للأنفاق على أنشطة هذه المنشآت ، على أن يقوم المشرف على الوقف «ناظر الوقف» بصرف كسوات للموظفين والتلاميذ الأيتام بمناسبة عيد الفطر ، أو صرف بدل نقدى بلغ فى وثيقة وقف السلطان قايتباى ألفى درهم .

وقد ذاعت شهرة دور الطراز المصرية بما أنتجته من المنسوجات الكتانية والحريرية والتى كانت تصدر فى العصور الوسطى إلى العديد من الدول الإسلامية بل والأوروبية . وكان الأسلوب الصناعى السائد هو اتخاذ لحمات الأقمشة من الحرير أو الصوف وسداتها من الكتان ، على أنه وجدت بعض الأقمشة المصنوعة كلها من الحرير «سدى ولحمة» وغالباً ما كانت توشى بخيوط من الذهب .

وقد تعددت طرق زخرفة المنسوجات التى كانت تصنع منها كسوات العيد ، فشملت الصباغة والتلوين والتذهيب والتطريز والطبع والتطبيق (البرودربة) والزخرفة المنسوجة .

أما الأزياء التى كان يرتديها المسلمون ، فقد تنوعت بحسب الشريحة الاجتماعية التى ينتمى إليها أصحابها ، أو الوظائف التى يعملون بها وإن اتفقت جميعها فى توخى الاتساع والاحتشام ، ولا فرق فى ذلك بين أزياء الرجال وأزياء النساء .

وحتى العصر العثمانى لم يتغير زى أرباب الوظائف الديوانية والقضاة وكذلك كبار التجار ، والذى كان قوامه "الطيلسان" والعمامية الكبيرة ، وكذلك الحال بالنسبة لملابس النساء ، وإن تبدلت ملابس العسكريين منذ بداية العصر المملوكى .

وما أن أهل العصر العثمانى فى مصر حتى كانت الأزياء قد تبدلت لتحاكى ما كان يلبسه أتراك القسطنطينية ، وصار زى كبار التجار والأثرياء فى المجتمع المصرى مكوناً من : "اللباس" وهو سروال الصيف (عادة من التيل) ويستبدل فى الشتاء "بالشرشير" وهو من الجوخ . وتميزت سراويل المماليك وقتها بلونها الأحمر وقماشها الحريرى المستورد من البندقية . وبعد ذلك نجد "القميص" وهو يتدلى حتى العقبين ، ويلبس فوق السروال وأكمامه واسعة وبالغة الطول . واختص المماليك بارتداء «اليلك» وهو صديرى واسع وقصير ، وأكمامه طويلة جداً وبالغة الاتساع .

وفضلا عن ذلك فقد كان هناك ثلاثة أنواع من الأثواب المتسعة المفتوحة من الأمام وهى "القفطان" و"الجبة" وكانت تلبس فوق القفطان ثم "البنيش" .

وجرت العادة بأن يرتدى الموسرون أحزمة من الموسلين أو الصوف أو الحرير فوق القفطان ويعتمرون العمامة المكونة من الطربوش الأحمر والشال الذى يلف حوله .

ولم يكن لفقراء المدن والريف نصيب فى هذه النوعيات من الملابس إذ اقتصرت ملابسهم على قطعتين من الملابس الداخلية وقميص من التيل الأزرق له كمان طويلان وهو يعتبر الرداء الوحيد لهم فى فصل الصيف . ولا يستغنى الفقراء عن خدمات هذا القميص إلا بعد أن يكون العرق قد نال منه النصيب الأوفى ، لأن الصابون وقتها كان ترفاً لا يقدر عليه إلا الأثرياء .

أما ملابس النساء فى العصر العثمانى فقد اشتملت على : "اللباس" الذى كان يتخذ من الكتان أو القطن صيفاً ، ومن نسيج أكثر سمكاً فى الشتاء ويعرف عندئذ «بالشنتيان» ، ثم القميص واليلك الذى يختلف عن يلك الرجال فى ضيق أكمامه ، وقد يستبدل اليلك "بالفستان" المغلق من

الأمام .

وترتدى النساء "الجبة" فوق الفستان ، ويعقدن الأحزمة من الخلف بحيث تتدلى على هيئة المثلث . أما غطاء الرأس ويعرف باسم «الربطة» فكان مكوناً من الطاقية والطربوش من فوقها ثم «القمطة» التى تلف حول الطربوش وتزين باللالئ والأحجار الكريمة .

واعتادت النساء عند خروجهن للطريق العام ارتداء "التذييزة" وهى مكونة من ثلاث قطع :

١ - السبلة : وهو قميص واسع من التفتاز يغطى كل الملابس ويتدلى حتى يلامس الأرض .

٢ - البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين ويتدلى حتى الركبتين .

٣ - الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود ، توضع فوق الرأس وتغطى به "الربطة" والملابس واليدين وتخلعه المرأة عند دخولها لأحد البيوت .

وقد أكتفت نساء الطبقات الشعبية بارتداء السروال ومن فوقه قميص أزرق اللون واسع جداً وأكمامه طويلة وواسعة تنزل حتى الردفين . ولم يعدم الأمر نساء فى الريف والمدن من كن يخرجن إلى العمل والأسواق وهن يرتدين "اليلك" بدون قميص وهو مايعنى عملياً الكشف عن جزء من صدورهن ، ونجد أمثلة كثيرة لهذه الحالات فى رسوم علماء الحملة الفرنسية والرحالة الأوربيين أيضاً .

ورغم تغير أنواع الأقمشة وتنوع الأزياء التقليدية والأوروبية التى نرتديها الآن فإن أبناء الطبقات المختلفة لا زالوا يبدون حرصاً شديداً على شراء "كسوة العيد" رغم مايسببه ذلك من عنت للعائلات التى تتمتع بوفرة فى عدد الأبناء ولكن الذى يهون من الأمر بعض الشئ أنها لا تشترى غالباً ثياباً جديدة فى عيد الأضحى الذى لا يبعد كثيراً عن عيد الفطر .

العيدية

"العيدية" لفظ اصطلاحي أطلقه الناس على ما كانت توزعه الدولة أو الأوقاف من نقود في موسمي "عيد الفطر" وعيد الأضحى ، كتوسعة علي أرباب الوظائف .

وكانت هذه "العيدية" تعرف "بالرسوم" في أضابير الدواوين ، ويطلق عليها التوسعة في وثائق الوقف .

و"العيدية" مدينة بظهورها كحق مكتسب لموظفي الدولة لسياسة "ذهب المعز وسيفه» الشهيرة ، إذ يؤثر عن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، أنه عند دخوله مصر بعد فتحها على يد جوهر الصقلي، وجد الناس في جدل ونقاش بين مؤيد ومشكك في صحة نسبه إلى البيت النبوي . فوقف وسط الناس وقد اخرج بسيفه قائلاً «هذا نسبي» ثم أعقب ذلك بإخراج بعض الذهب وهو يصيح «وهذا حسبي» .

وقد أثبتت الأحداث أن المعز لدين الله أحسن لحد كبير استخدام "حسبه ونسبه" في توطيد دعائم خلافته الشيعية المذهب ، فجرد الجيوش لتهاجم مناهضيه من غير هوادة ، وغمر رعاياه في كل مناسبة بالأعطيات ومظاهر الترف والبهجة .

وساعد المعز علي تنفيذ سياسته الذهبية ، سيطرة الخلافة الفاطمية على طرق تجارة الذهب مع غربي أفريقيا ، تلك التجارة التي تعرف "تاريخياً" بالتجارة الصامتة ، ذلك أن التجار المسلمين كانوا يذهبون إلى حافة الصحراء عند غانا القديمة ويضعون في مكان معلوم بضائعهم من أقمشة وخرز وزجاج ملون وملح ، على أن يعودوا إلى ذات المكان في اليوم التالي حيث يجدون كومة من التبر قام السكان المحليون بوضعها أمام كل صنف من السلع التي يرغبون في شرائها ، فإن أعجبهم السعر أخذوا الذهب ورحلوا أو عادوا أدراجهم دون أن يحركوا شيئاً من سلع المبادلة فيفهم السكان أن التجار يرغبون في زيادة الثمن حتى تنتهي عملية التفاوض ، وتتم تلك التجارة الفريدة دون أن يتبادل أطرافها أي حديث وربما دون أن يرى بعضهم البعض . وتذكر المصادر التاريخية **أن المعز لدين** الله حمل في رحلته من المهدية بتونس إلى القاهرة ثروة ذهبية هائلة سبكها على هيئة أحجار الطواحين الضخمة ووضعها على رواحل الجمال .

وإلى جانب الذهب الإفريقي كانت المناجم المصرية في وادي العلاقي ووادي الطميلات تزود الفاطميين بمعدن الذهب ، وذلك فضلاً عن حلى الذهب التي كان يستولي عليها من مقابر الفراعنة بواسطة حفنة من المغامرين تشرف الدولة على أعمالهم وهم يعرفون "بالمطالبين" .

وقد حرص الفاطميون على توزيع "العيدية" مع كسوة العيد ، خارجاً عما كان يوزع على الفقهاء

والمقرئين بمناسبة ختم القرآن ليلة عيد الفطر من الدراهم الفضية .

وعندما كان الرعية يذهبون إلى قصر الخليفة صباح يوم العيد للتهنئة ، كان الخليفة ينثر عليهم الدراهم والدنانير الذهبية من منظرته بأعلى أحد أبواب قصر الخلافة

والحقيقة إن الاهتمام الأكبر "بالعيدية" والمعروفة باسم الرسوم كان يقع فى عيد الأضحى لأن عيد الفطر كان يعرف لديهم بعيد الحلل والكسوات ، وقد رصدت لتلك الرسوم فى عام ٥١٥ هـ ، ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة دنانير ذهبية

وفضلاً عن ذلك فقد كان الفاطميون يضربون دنانيراً خاصة بغرة العام الهجرى تعرف بدنانير "الغرة" ، ويضربون أيضاً قطعاً ذهبية صغيرة تعرف بالخراريب (الخروبة = ١٩٢جرام) فى "خميس العهد" وهو من أعياد الأقباط فى مصر التى كان يحتفل بها المصريون جميعاً ، ويسمونه "خميس العدس" .

وتوزع الخراريب على موظفى الدولة والأمراء ، أى أن "العيدية" كانت لأعياد المسلمين والنصارى على حد سواء .

وبزوال دولة الفاطميين ، توقفت الدول المتعاقبة عن صرف العيدية أو الرسوم لأرباب الوظائف المدنية ، وأكتفت بصرفها للجنود من المماليك وبصفة خاصة فى عيد الأضحى كما كان الحال زمن الفواطم . وكثيراً ما تعرض بعض السلاطين لاعتداءات المماليك بسبب قلة أو تأخر نفقة العيد ، وربما أدى تذمر المماليك إلى عزل السلطان عند عجزه عن إرضاء رغبات مماليكه .

أما النقود التى كانت تصرف بها "العيدية" ، فهى محصورة فى ثلاثة أنواع هى : الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية وأجزاءها من الأنصاف والأرباع .

وقد اعتبرالمسلمون الدنانير والدراهم نقوداً شرعية بينما كانوا ينظرون إلى "الفلوس النحاسية" باعتبارها "عملات مساعدة" تستخدم لشراء محقرات الأشياء ولا يصح التعويل عليها كنقد شرعى للفارق الكبير بين قيمتها الإسمية كنقد وقيمتها الجوهرية كنحاس محتقر .

إلا أن مجموعة من الكوارث والمحن ألمت بمصر فى عهد الفاطميين أدت إلى ارتفاع الأسعار وإنهيار قيمة العملة أكثر من مرة ، مما دفع بالقادرين إلى إكتناز الذهب الذى كانت لدنانيره قوة إبراء غير محدودة ، وصحت بالتالى قاعدة جريشام التى تقول بأن «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول" إذ طردت الدراهم الفضية الدنانير الذهبية من التعامل اليومى إلى ظلال الاكتناز فى قصور الأثرياء .

وقبل أن ينتصف عمر دولة المماليك فعل الفلس النحاسى بالدرهم نفس الفعلة وكان الجزاء من جنس العمل ، فاختفت الدراهم وصارت الفلوس النحاسية هى السائدة فى التعامل ، حتى أن

الشخص الذى كان يقع فى يده دينار ذهبى فى ذلك العهد كان «كمن جاءته البشارة بالجنة» .

ونظراً لما كانت تتمتع به الدنانير والدراهم الإسلامية من قوة العيار (النقاء) ووفاء الوزن ، فقد حاول كثيرون تزييف هذه النقود ، سواء أكانوا من "الزغليين" (مزيفو النقود) أو من الأمراء الصليبيين بالشام ، إذ وضعوا الكتابات العربية على عملاتهم الرديئة لإعطائها قوة الإبراء التى كانت لتلك العملات الأصلية .

ومارس اليهود التزييف والتدليس على الجمهور بطريقتهم الخاصة ، فكان الصيارفة اليهود يقومون بوضع الدنانير فى أكياس يقومون بهزها فى غدواتهم وروحاتهم ، وينتج عن احتكاك القطع المعدنية ببعضها البعض «برادة» ذهبية يستفيد بها الصيارفة . ومن الطريف أن اليهود استخدموا ذات الأسلوب لإنقاص وزن ريالات «ماري تريزا» فى أوروبا خلال القرن الثامن عشر الميلادى .

وتزييف النقود الإسلامية فى واقع الأمر ، حلقة من حلقات متداخلة من محاولات البعض لتزييف النقود منذ ابتكارها ، ويحتفظ المتحف المصرى بالقاهرة بأول نقد معدنى مزيف ظهر إلى الآن ويرجع تاريخه إلى عام ٤٠٠ ق . م وهو عبارة عن سبيكة معدنية مغطاة بقشرة فضية .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن المسلمين تعاملوا بالنقد المعدنى فى غالب الأحوال ومعظم الأقطار ، باستثناء فترة قصيرة فى خلافة عمر بن الخطاب اتخذت خلالها "العملة الجلدية" بديلاً عن المعدنية لضرورة اقتضتها الحروب ، وأيضاً فى الولايات الفارسيه التى كانت خاضعة لحكم الإيلخان المغولى «كيخاتو خان» الذى وافق عام ٦٩٣ هـ على إصدار عملة ورقية عرفت "بالجاو" بناء على مشورة بعض الوزراء لتلافى عجز خزانة الدولة عن سداد المصروفات الضرورية ، إلا أن العمل بهذا "الجاو" المختوم بتمغة الخان المغولى ، لم يستمر طويلا واضطر "كيخاتو" إلى وقف العمل به نتيجة لضغوط الفقهاء والعامة وانتهى الأمر بقتله بعد أشهر قليلة وتوليه «بادوخان» مكانه .

ومن نافلة القول أن نذكر بأن الصينين هم أول من عرفوا النقود الورقية وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريباً أى بعد مرور خمسة عشر أو ستة عشر قرناً على سك أول نقد معدنى فى عهد كرويسوس أو قارون الليدى (٥٦١ - ٥٤٦ ق . م) بآسيا الصغرى .

ومهما يكن من أمر المادة التى سكت منها نقود "العيدية" فإن النقود الإسلامية قد أصابها ما أصاب الكيان الإسلامى ذاته من ضعف ووهن منذ القرن التاسع الهجرى (١٥م) ، فاختفت الدنانير والدراهم لتحل مكانها "الدوكات" من ضرب البندقية و"الإفلورى" من ضرب فلورنسا بإيطاليا ثم ريالات ماريا تريزا النمساوية وما إلى ذلك من عملات أوربا .

وإذا كانت متاحف العالم تتيه الآن بمقتنياتها من العملات الإسلامية القديمة ، فإنها فى الواقع مدينة بتلك "الثروات التاريخية" للاكتناز الذى صاحب انهيار القوة الشرائية لهذه العملات أولاً ، ومدينة ثانياً لعادة بعض المسلمين فى إحاطة رؤوس أطفالهم بنقود ذهبية كتعويذة نظراً لنقشها بآيات

قرآنية . وقد وجد الأوروبيون بغيتهم من الدنانير الأثرية فى حليات الفتيات المسلمات ، ولذلك فليس من المستغرب أن معظم الدنانير القديمة المحفوظة بالمتاحف وجدت مثقوبة لأنها استخدمت كجزء من الحلى الإسلامى .

ومن الملفت للنظر أن تغير الدول فى مصر ، وتنوع أسماء العملات على مدار العصور حتى ليكاد يصعب حصرها خاصة فى أيام العثمانين ، ذلك كله لم ينس الناس "عيدية" الفاطميين وإن تبدلت المواقف ، فالدولة خرجت من عملية إهداء "العيدية" ودخل الأباء والأعمام والأخوال ليتحملوا عبء تمويل "العيدية" لصالح «الأطفال» الذين أخذوا موقع الموظفين والأمراء .

وبعد ذلك فليس هناك ثمة شك فى أن الأباء يصبون الآن اللعنات على المعز "وذهبه" الذى جر عليهم تبعات تلك العيدية .

المحتسب فى رمضان

قبل أن يتم إلغاء وظيفة «الحسبة» فى البلاد الإسلامية فى القرن الماضى ، كان «المحتسب» من أبرز شخصيات الحياة العامة التى يعمل لهما الناس كافة ألف حساب ، وخاصة خلال شهر رمضان الكريم .

وقد اختلف الكتاب فى معنى كلمة "المحتسب" ، فمن قائل بأنها مشتقة من قولهم «حسبك» بمعنى اكتف لأن المحتسب يمنع الناس من الغش وارتكاب المحظورات ، إلى صاحب القاموس المحيط الذى يقول «احتسب عليه ، أنكر ومنه المحتسب» . وأيضاً يقال فعلت هذا الأمر حسبة لله وأحتسبته عند الله أى جعلت حسابى عليه وأجرى منه .

أما الفقهاء فكانوا أقل اختلافاً فيما بينهم عن علماء اللغة ، فالحسبة عندهم هى الأمر بالعروف والنهى عن المنكر ، والذى يرى "ابن خلدون" أنه فرض على القائم بأمور المسلمين .

وقد أجمل الفقيه "ابن تيمية" مهام المحتسب فى أنه «يأمر بالجمعة والجماعات ويصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل فى ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش فى الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك ، والغش يدخل فى البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع كما يدخل فى الصناعات» .

وتضاربت أقوال المؤرخين فى منشأ الحسبة فبعضهم يقول أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أول محتسب ، إذ نهى عن الغش حين قال :- "من غشنا فليس منا" وذلك عندما مر بالسوق وأنكر ما قام به أحد الباعة بوضع طعام أصابه المطر بأسفل صحيح الطعام حتى لا يراه المشترون . ويقول آخر أن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة وكان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه (وهى جلد البقر أو الجمل ومحشوة بنوى التمر) فمتى رأى غشاشاً ضربه بها مهما كان شأنه وربما أتلف بضاعته .

وإذا كان الخلفاء أنفسهم هم الذين قاموا بوظيفة المحتسب فى صدر الإسلام ، فإن تعقيدات الحياة فرضت على من أتى بعدهم أن يولوا موظفاً بعينه لممارسة ذلك العمل وهو "المحتسب" الذى كان له «أعوان» يساعدونه فى اكتشاف طرق غش الباعة والصناع وفى إنزال العقوبات بهم أيضاً .

يمكن القول بأن المحتسب كان يؤدى وظائف مجموعة من الدوائر الحكومية التى نعرفها اليوم فى النظم الإدارية الحديثة ، مثل رئاسة البلدية ووزارة التموين وشرطة الآداب والشئون الاجتماعية وغير

ذلك من الوظائف التى تتعلق بسير الحياة اليومية .

كان المحتسب على سبيل المثال لا الحصر يراقب كل صاحب مهنة يكتسب منها ، صغر شأنها أو كبر ، حتى أنه كان يراقب الفرانين والخبازين ويمنعهم من عجن الدقيق بأرجلهم أو غش الخبز بإنقاص وزنه أو إضافة مواد غريبة إليه . كما كان معنياً بتوفير شروط النظافة والصحة العامة داخل المخابز .

ولم يفلت الأطباء من مراقبته ، فكان يأخذ عليهم عهد "أبقراط" ويجبر الطبيب . على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه .

ويمتد نفوذ المحتسب إلى الأسواق فيمنع الغش والاحتكار ورفع الأسعار ويراجع الموازين والمكاييل ليتأكد من سلامتها . كما يمنع شرب الخمور علنا ويطارد السحرة والكهنة والرجال الذين يتعرضون للنساء . وعليه أيضاً منع الناس من طرح الكناسة على جوانب الطريق وإلزامهم بإزالة ماء المطر من الطرقات لأن ذلك ينجس الثياب ، والمحافظة على نظافة المساجد وأداء المسلمين للصلوات الجامعة بها .

ويأمر المحتسب أيضاً بهدم الأبنية البارزة ويمنع فتح النوافذ فى الأبنية التى تشرف على غيرها ويدعو أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع أنقاضها من الطريق .

ومن حقوق المحتسب أن يجبر السادة على معاملة عبيدهم وإمائهم معاملة حسنة ، وأخذ أرباب البهائم بعلوفتها وأن لا يستعملوها فى ما لا تطيق عمله .

وله أيضاً السهر على الأطفال اللقطاء والتكفل بهم ، وجمع وحفظ الأشياء الضائعة وإعادتها إلى أصحابها ، ومنع معلمى المكاتب من ضرب الصبيان ضرباً مبرحاً ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل .

ولم يخرج الحكام عن دائرة اختصاص المحتسب ، إذ يروى أن أتابك دمشق طلب محتسبا ، فذكر له رجل من أهل العلم ، فأمر بإحضاره فلما نظره قال : إنى وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فرد عليه قائلاً : إن كان الأمر كما تقول فقم عن هذه الطراحة وارفع المسند فهما حرير واخلع الخاتم فإنه ذهب ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم هذان حرام على ذكور أمتى حل لإناثها فنهض السلطان عن الطراحة وخلع الخاتم وأضاف إلى المحتسب وظيفة الشرطة .

وظلت الحسبة لا يولاها إلا وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية حتى القرن التاسع الهجرى ، عندما بدأ المماليك فى مصر والشام فى توليتها بالبذل والبرطلة (بالرشوة) ويذكر التاريخ أن الأمير "تنم من رصاص" هو أول من ولى الحسبة بالبذل ، ومن يومها اتضعت هذه الوظيفة وذهبت هيبتها حتى ألغيت .

وقد كان للمحتسب إضافة إلى وظائفه السابقة مهام خاصة يقوم بها فى شهر رمضان .

فهو الذى يحاسب المفطر بعد أن يسأله عن سبب إفطاره لاحتمال أن يكون مريضاً أو مسافراً ، فإذا أثبت شيئاً مما يبيح له الإفطار عذره للجهر بالإفطار ، وإن كان مضطراً لغير سبب أدبه وشهر به. والتشهير هو الذى يعرفه عامة الشعب باسم «التجريس» أو الجرسة ، فيركب المفطر بدون عذر على جمل أو حمار بوضع عكسى ويطاف به فى الأسواق ويجلل بلباس خاص يحوى الكثير مما يلفت النظر إليهما لأجراس وأذناب الثعالب وتتبعه أفواج الصبيان ينعتونه بأعنف الأوصاف وينالون من شرفه وكرامته بشكل لا يقوم له بعد ذلك كيان .

ولا زالت الذاكرة التاريخية تنقل إلى الأطفال تلك العبارة الأشهر من بين ما كان يقال فى موكب الجرسة "للمفطر" يا فاطر رمضان .. يا خاسر دينك» ونجد ذلك المقطع من الموروث الشعبى يتكرر فى زجل للشيخ محمد النجار فى أوائل هذا القرن ، فيقول :

يا خاسر الدين يا فاطر نهار رمضان

طاوع إلهك وخالف النفس والشيطان

ولا مراء فى أن مهمة المحتسب فى مراقبة المفطرين فى العصور الأولى كانت أكثر يسراً عنها فيما تلا ذلك من عهود ، إذ أن أبناء الأديان الأخرى كانوا يراعون شعور المسلمين فلا يطعمون ولا يشربون أمامهم نهاراً ، ويروى بعض المؤرخين أن أحد المجوس رأى ابنه يأكل فى رمضان فضربه وقال له : هلا حفظت حرمة المسلمين فى رمضان ؟ بل إن بعض هؤلاء كان يصوم رمضان بالفعل كالأديب أبى إسحق الصابى .

ولم يتطرق الانحلال إلى هذه العادة النبيلة إلا بعد أن رأى غير المسلمين أن المسلمين أنفسهم لا يرعون حرمة الصيام فباتوا لا يرجون لهم وقارا وصدق من قال :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها

هواناً بها كانت على الناس أهونا

ولم يستطع المحتسبون شيئاً مع بعض من جاهروا بإفطار رمضان من الشعراء ولعلهم عدوا ذلك من قبيل حقوق إبداء الرأى أو حرية التعبير لتلك الصفوة من الناس فلم يعذر مثلاً الشاعر العباسى "ديلك الجن الحمص" عندما قال :

وحياة ظبى لم أصم عن ذكره ∴ إلا عضضت تندماً إبهامى

لأشافهن من الذنوب عظامها ∴ ينقد عنها جلد كل صيام

ولعل فى أشعار الأخطل ما يدل على التسامح الذى تمتع به الشعراء ومنهم هذا الشاعر المسيحى ولم يوبخه مسئول الحسبة الأول عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى عندما قال :

ولست بصائم رمضان عمرى ∴ ولست بأكل لحم الأضاحى

ويذكر المؤرخون أنه كان يدخل على عبد الملك بن مروان والخمر تفوح من فيه وتتحادر من لحيته

بيد أن تلك الحوادث الفردية لم تفت فى عضد المحتسب وأعوانه فكانوا يقومون بعملهم فى مراقبة المفطرين وتعذيرهم أو تأديبهم على الجهر بالإفطار ، ثم فترت همة المحتسب وأعوانه عندما دخلت الرشوة فنخرت عظام الحسبة بأسرها وجاءت موجة الاستعمار الأوروبى الحديث فصار الناس يتباهون بالإفطار مقلدين الأجانب حتى أن بعض المسحرين كان يقول :

واعرف يقينك وشمر ساعدك والذيل

لحفظ دينك واصح تكون الأفرنكة

وتقول على الصوم يهد العافية والحيل

فذهب ما كان قد تبقى للحسبة والمحتسب من هيبة فى رمضان ، وجاء إلغاء الحسبة ليكون بمثابة كتابة شهادة وفاة لعزيز وورى الثرى ، فلله درها من وظيفة نفتقدها فى كل رمضان يمر بنا الآن .

أسواق القاهرة فى رمضان

لو قيض القدر "للقاهرة" أن تحتفظ بأسواقها القديمة ، لعرفها العالم بوصفها «مدينة الأسواق» ، لا مدينة الألف منذنة" .

فمساحة القاهرة القديمة ، التى لم تكن كبيرة بحال من الأحوال ، كان بها ٥٠ سوقاً مفتوحاً ، و٣٣ مبنى مخصص لأغراض التجارة تتنوع بين قيسارية أو خان أو فندق أو وكالة ، وذلك كله خارجاً عما كان فى الفسطاط وساحل بولاق وظواهر القاهرة .

وكان أهل كل حرفة أو تجارة يتجمعون فى سوق خاص بهم يعرف باسمهم ، وذلك تسهيلا لشيخ كل طائفة فى مراقبته لأبناء "صنعته" .

ومن أشهر أسواق القاهرة التى ذكرها المقريزى ، المؤرخ المشهور، سوق "القصبة" أى سوق الشارع الرئيسى للقاهرة وهو حالياً شارع المعز لدين الله أو «بين القصرين» وكان به ألف حانوت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة التى تبهج رؤيتها وقد تفرعت من هذه السوق أسواق صغيرة أخرى أهمها سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح وسوق اللحميين (الجزارين) وسوق الجوخيين (لتجارة أقمشة الجوخ) وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وسوق الصناديقيين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابيين (لبيع قرب الماء) وغير ذلك كثير .

ولم يتبق من المنشآت التجارية ، التى تعددت مسمياتها فمنها ما يعرف بالوكالة أو القيسارية أو الخان وأيضاً منها الفنادق سوى عدد ضئيل نسبياً ، أهمها ، وكالة قايتباى قرب باب النصر ووكالة الغورى بجوار الأزهر وخان الخليلى بحى الجمالية وتعد وكالة الغورى أحسن هذه المنشآت اكتمالاً وحفاظاً وهى تتكون من فناء واسع مكشوف تحيط به أربعة أضلاع من البناء ، كل منها مكون من خمسة طوابق وكانت الأدوار السفلية مخصصة لعرض البضائع وتخزينها أما الأدوار العلوية فكانت معدة لسكن التجار الذين كانوا يجيئون من شتى أقطار الأرض .

وقد كانت القاهرة منذ نشأتها مركزاً للتجارة العالمية ، وانعكس ذلك على حركة البيع والشراء بها ، فأصبحت أسواقها أكثر بقاعها إزدحاماً وضجيجاً وخلال شهر رمضان كان الإزدحام والتكالب على الحوانيت أكثر المظاهر إثارة وتشويقاً فى أسواق القاهرة ، خاصة وأن أهلها حسبما لاحظ الرحالة كانوا يشترون طعامهم مطهياً من الأسواق ، واستمر هذا الوضع حتى مقدم الحملة الفرنسية فى نهاية القرن ١٨ م ، ويعزى ذلك إلى قلة "الوقود" اللازم لعمليات الطهى بالمنازل وارتفاع أسعاره .

ولا شك أن الفترة المحددة للإفطار ، وهى لحظة الغروب ، كان يسبقها تكالب وصخب يمتد إلى وقت السحور .

وقد أمدنا الرحالة المغربى «العبدرى» بصورة حية لما كان عليه حال سوق بين القصرين فى أواخر شهر رمضان من عام ٦٨٨ هـ ، إذ صادفه سوء الحظ فنزل بالمدرسة الكاملية المطلة على السوق ، فقال رحمه الله «كنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة وهم يبيعون طوال الليل وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلا من السوق والطرق غاصة بالخلق حتى ترى الماشى فيها لا هم له سوى التحفظ من دوس الدواب إياه ولا يمكنه تأمل شئ فى السوق لأن الخلق مندفعون فيها مثل اندفاع السيل . وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها . شخصاً راكباً فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، واندفعت فى غمار الخلق ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها» .

بيد أن هذا الصخب والضجيج كان يتوقف فى لحظة واحدة إذا ما شعر التجار وعامة الناس بنزول المماليك إلى الشوارع للاقتتال ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك فيسرع أصحاب المتاجر إلى إغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة ، وتتحول الطرقات والدروب إلى مقبرة للصمت المخيف .

ومن غرائب ما كان يباع فى الأسواق من طعام فى شهر رمضان ، الدجاج المطبوخ بالسكر ، وقد يضاف إليه الفستق فيعرف بالفستقية أو الجوز فيقال له الجوزية ولربما أضيف إليه الخشخاش وهو "زهر الحشيش" ورغم وجود هذا المخدر فى الدجاج فإن أحدا ويا للعجب لم يستنكر أكل هذه "الخشخاشية" فى رمضان !!

ولعلنا لا نعجب من ذلك ، إذا ما عرفنا أن تجار المخدرات (التحفجية) كانوا يروجون لبضاعتهم داخل جامع الحسين حيث كان بعض المصلين يضجعون حتى يحين موعد الإفطار .

وإذا ما تجاوزنا أسواق الطعام كالشوايين واللحميين ، فإننا سنجد أن سوق الشماعين فى القرنين ٨ ، ٩ هـ كان يحتفل بمقدم شهر رمضان بطريقته الخاصة ، فتعلق على واجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع ، وأشكال الشموع ما بين كبيرة وصغيرة ومنها ما يزن عشرة أرطال (الرطل = ٤٠٠ جرام) ومنها ما يحمل على "العجل" ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار (١٠٠ رطل) وذلك لاستعماله وقت الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلا .

فيسمر فى شهر رمضان من ذلك ما يجل عن الوصف ، وتستمر حوانيت الشمع مفتوحة إلى منتصف الليل لكثرة ما يشترى وما يكترى من الشموع الموكبية وبفضل هذا السوق وتقاليد تجارته نشأت فوانيس رمضان التى نعرفها الآن . وإلى وقت قريب كان "السمكرية" يهتمون منذ شهر شعبان بعمل الفوانيس التى توضع بداخلها الشموع ، ويبدعون فى أشكالها وألوان زجاجها ويزينون بها

واجهات حوانيتهم فيفرح بها الأطفال ويسعون لشرائها غير أن "تكنولوجيا" العصر الحديث أزاحت فوانيس الشموع" عن عرش رمضان ليحل محلها فوانيس تعمل بالبطارية ذات أشكال نمطية جامدة تخلو من روح الإبداع والإبتكار وتفتقد الأصالة وعبق الماضى التليد الذى كان توحى به فوانيس السمكرية ، وإن ظهرت مؤخراً محاولات لإحياء تقاليد الفانوس القديم الذى أخذ ينتشر بكثافة مجدداً لا سيما فى الأحياء القديمة .

ولم يدانى سوق الشماعين حركة ونشاطاً فى شهر رمضان سوى الأسواق والحوانيت التى كانت تبيع أصناف الياميش وقمر الدين وعلى رأسها "سوق السكرية" داخل باب زويلة ، فكانت أنواع الياميش وقمر الدين تفرش على أبواب الحوانيت ويتسابق الشعب إلى الاغتراف منها ، وكانت رخيصة السعر فيتمتع بها الغنى والفقير وتقدم للضيوف ويوزع منها على أطفال الحارة حينما يطوفون على الدور بفوانيسهم الموقدة محيين أصحابها .

وكانت وكالة الأمير قوصون الساقى المنشأة حوالى ١٣٤٠م والباقى مدخلها إلى الآن بالقرب من باب النصر مقر تجار الشام ينزلون فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب ، وتزدحم الوكالة على وجه الخصوص فى شهر رمضان لإقبال الناس على شراء الياميش ولما تخربت تلك الوكالة انتقلت تجارة المكسرات إلى وكالة مطبخ العسل بحارة بالتمبكشية (بائعو التمباك) بحى الجمالية ، وكانت مخصصة لبيع أصناف النقل كالجوز واللوز ونحوها .

وقد تركت أسواق الياميش هذه انطباعاً قوياً لدى المصريين حتى وقتنا هذا حتى ليصعب على المصرى أن يتصور شهر رمضان بدون "ياميش" ، وقد قوبل قرار الحكومة المصرية فى بعض السنوات بحظر استيراد أصناف الياميش بعاصفة من السخرية وسيل من النكات اللاذعة ليس فقط بين الناس بل وعلى صفحات الجرائد وخاصة رسوم الكاريكاتور ، رغم أن الجميع يعلم علم اليقين أن صيام شهر رمضان جائز شرعاً بدون الياميش .. ولكنها أسواق القاهرة التى لازالت تعيش فى وجدان الشعب رغم ارتفاع الأسعار والأزمة الاقتصادية الخانقة .. وتقادم الزمن .

الشمعدان والتنور

لا نشك أن مواعيد تناول الإفطار والسحور أثناء شهر رمضان ، قد أعطت لوحدات الإضاءة الإسلامية أهمية خاصة خلال شهر هذا الشهر ، وكانت المواد التى تصنع منها هذه الوحدات ، تعد مؤشراً صادقاً على الحالة المادية لمن يستعملونها . وبينما كانت بيوت الفقراء تضاء بواسطة "المسارج" الفخارية التى تستعمل "الزيوت" و"الفتيل" ، كانت منازل وقصور التجار والأغنياء مغمورة بأضواء "الشمعدانات" والتنانير أو "الثريات" ، وجميعها مصنوعة من المعادن وإن اختلفت فى مواد الإضاءة.

فالشمعدانات كانت مجرد حوامل معدنية للشموع الكبيرة ، توضع عادة فى قاعات الاستقبال بالمنازل ، حيث كان رب البيت يتناول طعامه مع من يستضيفهم من الفقراء أو الأصدقاء ، وخاصة فى وقت الإفطار . ويندر أن يستخدم الشمعدان فى المساجد والجوامع ، لأن مجال إضاءة الشموع ضيق نسبياً ، ولا يجدى كثيراً فى المساحات الشاسعة والمفتوحة لتيارات الهواء . وإن كان الرحالة ابن جبير قد لاحظ فى رحلته لمكة فى رمضان من عام ٥٧٨ هـ /١١٨٣ م أن الشمعدانات الضخمة كانت تستعمل فى إضاءة بعض جوانب الحرم المكى خلال أداء صلاة التراويح .

وتعد التنانير أو الثريات أكثر وحدات الإضاءة الإسلامية إحتفاء بمقدم شهر رمضان سواء فى بيوت الأغنياء أو الجوامع .

والتنور ، كتلة معدنية يتضاءل الشمعدان إلى جوارها ، وتختلف فى حجمها بحسب شراء صاحبها وأيضاً تبعاً للسقف الذى تعلق فيه . وفى كل تنور أكثر من مصباح يستعمل الزيت للإضاءة ، وإلى حد بعيد يمكن اعتبار التنانير الإسلامية الأصل فى الثريات الحديثة المستعملة الآن .

وقد أشتهر عن بناة الجوامع من الخلفاء والسلاطين والأمراء أنهم كانوا يوقفون التنانير لإضاءة مساجدهم مثل الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى خصص لجامعى راشدة والأزهر تنورين من الفضة كان يستحيل دخولهما لهذين المسجدين إلا بعد خلع الأبواب وهدم أجزاء من الجدران .

ومما يؤسف له أن معظم التحف المعدنية الإسلامية لم تصل إلينا بسبب عمليات الصهر وإعادة التشكيل التى كانت تتم للتحف القديمة فى كل العصور .

ومن خلال الأمثلة القليلة التى تزدان بها متاحف المعمورة الآن يمكن القول بأن المسلمين كانوا يتجنبون استخدام الذهب وإلى حد ما الفضة فى عمل الشمعدانات والتنانير نظراً لكراهية الإسلام لإستخدامها الترفى ، ولذا نجد أن معظم المشغولات المعدنية ، قد صيغت من البرونز وهو خليط من

النحاس الأحمر والقصدير ، أو من النحاس الأصفر (وهو خليط من النحاس والزنك) وإن لم يعدم الأمر استخدام الفضة أو الذهب فى عمل الزخارف .

واستخدام "معدن" فى زخرفة المصنوعات المعدنية هو ما يعرف لدى أهل الصنعة "بالتكفيت" . ويتم ذلك بواسطة حفر الزخارف فى بدن الشمعدان أو التنور وملأها بأسلاك من معدن مختلف والطرق عليها حتى تتساوى مع مستوى سطح الأنية المعدنية وقد استخدم النحاس الأحمر فى زخرفة أوانى البرونز وشاع استخدام الفضة فى تطعيم مصنوعات النحاس الأصفر .

ويعزى إلى أهل الموصل بالعراق فضل ابتكار أسلوب التطعيم أو التكفيت ونقله إلى مصر والشام بعد ذلك فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وقد كثرت فى مصر المصنوعات المعدنية التى تحمل أسماء صناع موصليين بعد اجتياح المغول لبغداد وسقوط الخلافة العباسية ، إذ أدت حالة الاضطراب والفوضى التى أعقبت سقوط بغداد إلى هجرة الصناع الموصليين إلى مصر .

وبفضل جهود صناع الموصل إزدهرت صناعة الشمعدانات والتنانير فى مصر وساعد على رواج منتجاتها الرخاء الاقتصادى الذى عم البلاد نتيجة لتحول طرق تجارة التوابل والبهار من الشرق الأقصى والهند إلى الطريق البحرى عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى الموانئ المصرية والسورية على البحر المتوسط ، لتنقل بعد ذلك إلى أوروبا . وقد أفادت الدولة المملوكية من الرسوم المفروضة على تجارة الترانزيت هذه بعد أن نشر التتار الرعب والفزع حيث كان يمر الطريق البرى لهذه التجارة عبر آسيا إلى موانئ المتوسط .

وازدهر تبعاً لذلك "سوق الكفتيين" بالقاهرة ، بأنواع المصنوعات المعدنية المكفتة التى برع المصريون فى صنعها بعد أن أتقنوا فنها على أيدى الموصليين ، إلا أن احتكار سلاطين المماليك للتجارة أصاب هذا السوق ضمن ما أصاب المجتمع المصرى بأسره من إفتقار وإملاق ، فقل الإقبال على شراء منتجات الكفتيين حتى أن المقريزى يقول فى حوالى عام ١٤٢٠م أنه قد بقى بهذا السوق فى أيامه بقية من صناع الكفت قليلة"

وقد أتاح تدهور هذا السوق الفرصة للمدن الإيطالية التجارية وخاصة "البندقية" لترويج منتجاتها المعدنية التى حاولت بها تقليد المعادن الإسلامية خلال القرنين ١٥ ، ١٦م . وإن لم يستطع أهل البندقية تعلم صناعة التكفيت من الصناع السوريين الذين انتقلوا إلى البندقية ، واقتصرت مشغولاتهم على طرق الزخرفة الإسلامية الأخرى مثل استخدام الحز والتخريم .

وقد حرص الكفتيون على التمييز بين الشمعدانات والتنانير التى توضع بالمنازل ومثيلاتها التى توضع بالجوامع والمساجد ، عن طريق الزخرفة .

فالمواضيع الزخرفية لتنانير المساجد كانت تخلو من رسوم الكائنات الحية وتقتصر على الزخارف الهندسية والنباتية والكتابات العربية ، وذلك جرياً على عادة المسلمين فى تنزيه بيوت الله أن تحوى

ما فيه شبهة محاولة "تمثيل" خلق الله . ومن أمثلة ذلك ثريا من مسجد الحمراء بالأندلس محفوظة بمتحف الآثار بمدريد ، صنعت بأمر محمد الثالث س ٧٠٥ هـ ، حيث اقتصرت زخارفها على الرسوم النباتية المفرعة والكتابات العربية ، كما نجد أن العادة فى إيران قد جرت على أن ينقش على الشمعدانات نصوص من الشعر الإيرانى من قصة «الفراشة والشمع» وأباح صناع المعادن لأنفسهم استعمال الرسوم الآدمية والحيوانية فى تزيين الشمعدانات والتنانير التى تستخدم للإضاءة بالمنازل مثلما نجد فى شمعدان من النحاس المكفت بالفضة صنع باسم زين الدين كتبغا المملوكى وهو محفوظ بمتحف الفن الإسلامى ، وفيه تنتهى هامات الحروف العربية بأشكال آدمية .

وإلى أبعد من ذلك ذهب الصناع فى العصر الأيوبى فقد وصلتنا أوان معدنية عليها أسماء بعض سلاطين بنى أيوب وتحوى موضوعات زخرفية مسيحية تضم مناظر من حياة المسيح وصور القديسين والمحاربين إلى جانب الزخارف الأخرى العادية التى نراها على الأوانى الإسلامية المعاصرة .

وبمتحف الفنون الزخرفية بباريس قطعة معدنية عبارة عن شمعدان عليه اسم صانعه : داود بن سلامة الموصلى وتاريخ صناعة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م) ، وتتألف زخارف الشمعدان من مناظير لحياة السيد المسيح .

ورغم ما أصاب صناعة المعادن الإسلامية عامة من تدهور فى العصر الحديث ، وما أدرك صناعة الشمعدانات والتنانير من جراء اختراع الكهربا على وجه الخصوص إلا أن الدواعى السياحية ، قد أدت إلى الحفاظ على بعض التقاليد القديمة فى صناعة المعادن وإلى الآن لازالت الشمعدانات والتنانير الضخمة تباع فى النخاسين بالقاهرة ، وإن اختفى منها التكفيت بالفضة والذهب لتحل محلها مادة "النيلو" وهى عبارة عن مادة سوداء تتكون من صهر نسب معينة من النحاس والرصاص والكبريت وملح النشادر ، وتوضع فى الأجزاء المحفورة بالزخارف .

وغنى عن القول أن بقاء صناعة هذه الوحدات الإسلامية التى كانت ألمع نجوم الإضاءة فى شهر رمضان ، داخل الهامش الانتاجى المخصص للسياحة ، أفضل بكثير مما اعتادت عليه "الراقصات" فى القرن الماضى وبداية القرن العشرين من الرقص بالشمعدانات !!

المشكاوات

المشكاوات من أهم أدوات الاضاءة التى استخدمت فى العصور الوسطى وخاصة فى مصر والشام ، وقد احتلت مكانا أثيرا فى أوقات الاستزادة من الإضاءة خلال شهر رمضان

ويقصد بتعبير المشكاوات تلك الزجاجات أو القناديل التى كانت توضع فيها المصابيح ، وقد استمد هذا الاسم من الآية الكريمة التى شاع وردها عليها (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم) (سورة النور الآية ٣٥) ، وكانت هذه الآية القرآنية ترد عادة على المشكاوات حتى كلمة (يوقد) .

ومن نافلة القول أن نذكر أن كلمة مشكاة تعنى فى العربية «دخلة فى جدار» يوضع فيها المصباح ولا تعنى بحال من الأحوال وحدة الاضاءة كما يتضح من سياق الآية الكريمة ، ولكن جرى العرف على تسمية هذه المصابيح بالمشكاوات ولرب خطأ شائع كان أفضل من صحيح مهجور .

وتشبه المشكاة فى شكلها العام الزهرية ، فهى ذات بدن منتفخ ينساب إلى أسفل وينتهى بقاعدة ولها رقبة على هيئة قمع متسع . وبداخل المشكاة كان يوضع إناء صغير به الزيت والفتيل الذى يوقد للاضاءة عند صلاة المغرب من كل يوم ، ويقوم خادم المسجد بذلك العمل عن طريق إنزال المشكاوات من سلاسلها عند الفجر وإطفاء القناديل ثم يعيد تعليقها بعد الاضاءة عند المغرب ، وكان بناة الجوامع من السلاطين والأمراء يوقفون الأوقاف من أراضى وعقارات للانفاق من ريعها على المساجد ، وكان زيت قناديل المشكاوات من ضمن ما ينص على الالتزام بشرائه فى وثائق الوقف وعادة يوضع فيها زيت الزيتون أو زيت الشيرج (السمسم) .

ولا تختلف المشكاوات عن غيرها من مصنوعات الزجاج الإسلامى الذى كان يصنع بنفس الطريقة القديمة التى تتمثل فى صهر الرمل (أوكسيد السليكون) بعد خلطه بنسب معينة من الحجر الجيرى (كربونات الكالسيوم) بالإضافة إلى نسب من كربونات الصوديوم وأكاسيد أخرى ، ويشكل الزجاج بعد ذلك بواسطة النفخ تمهيداً لعملية الزخرفة .

وقد استخدمت فى زخرفة المشكاوات طريقة التذهيب والطلاء بالمينا وذلك عبر مراحل فنية متعددة ، إذ كان الصناع يضعون الزخارف المذهبة على «التحفة» بواسطة الريشة وذلك عند رسم

الخطوط الخارجية ، وبالفرشاة فى المساحات الكبيرة . وبعد أن تحرق المشكاة فى الفرن المرة الأولى يحدد موضوع الرسم باللون الأحمر ثم يطلى بالمينا المختلفة الألوان ، وهذه المينا يختلف قوامها حسب موضوع الرسم وبالتالى درجة لمعانها .

وكان طلاء المينا نصف الشفاف يتكون من ذائب الرصاص ثم يلون بالأكاسيد المعدنية : بالأخضر من أكسيد الحديد ، والأصفر من حامض الأنتيمون ، والأبيض ، وهو معتم تماماً ، من أكسيد القصدير . أما لون المينا الزرقاء والتى لعبت دوراً هاماً فى زخرفة المشكاوات ، فكانت تصنع من مسحوق اللازورد مع زجاج لا لون له .

أما الموضوعات الزخرفية التى كانت تزين أبدان المشكاوات بألوان المينا المتعددة والخطوط المذهبة، فقد خلت من الرسوم الآدمية والحيوانية ، واقتصرت على الزخارف الكتابية ورسوم النباتات والأزهار والأشكال الهندسية المتعددة .

ولا يخرج عن هذه القاعدة سوى بضع مشكاوات صنعت لبعض سلاطين المماليك من آل قلاوون ، واستخدمت فى زخارفها رسوم «البط» .

وإذا كان من السهل التعرف على المشكاوات التى صنعت لسلاطين ، فإن الأمر لم يكن كذلك دائماً بالنسبة للأمراء . فألقاب السلطان واسمه كانت تكتب بخط واضح على بدن المشكاة ويوضع اسمه فى أشرطة كتابية بأسفل وأعلى المشكاة أيضاً ، أما بعض الأمراء فكانوا يكتفون بوضع «رنكهم» . و«الرنك» كلمة فارسية تعنى «اللون» ، وهى تعنى فى العصر المملوكى «الشارة» التى توضع على البيوت والأماكن والأشياء المنسوبة إلى صاحب «الرنك» . ومعظم الرنوك يدل على وظائف أصحابها ، فشعار «الدوادار» الدواة ، وشعار «السلحدار» السيف ، والساقى شعاره الكأس، و«البريدى» شعاره درع مقسم إلى ثلاثة أقسام أفقية ثم اتخذ من «بغل البريد» رنكاً له بعد ذلك . ولما كانت هذه الوظائف حقاً مشاعاً بين أمراء المماليك جميعاً فإنه يصعب معرفة صاحب المشكاة التى يرد عليها «الرنك» دونما ذكر لاسمه .

ويبلغ إجمالى ما وصلنا من مشكاوات إسلامية نحو ثلاثمائة مشكاة كاملة يرجع معظمها إلى عصر المماليك ومن الصعوبة بمكان تحديد مكان صناعتها سواء فى مصر أو سوريا لتشابه طرق الصناعة والزخرفة بالبلدين فى هذا العصر ، ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بمعظم هذه المشكاوات ويليه فى المرتبة الثانية متحف المتروبليتان بنيويورك . وتتوزع بعض المشكاوات أيضاً على الكنائس الأوروبية ، حيث حملها الحجاج الأوروبيون فى طريق عودتهم من بيت المقدس ووضعوها «كنذور» فى هذه الكنائس ، ولعل ذلك يوضح ما كان لهذه المشكاوات من قيمة مادية وفنية فى العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن ننوه أن بعض هذه المشكاوات وصل إلى أوروبا ضمن ما سلبه الصليبيون فى حملاتهم على بلاد الشام من كنوز وتحف .

ومما يصيب المرء بالأسف أن صناعة هذه المشكاوات المذهبة والمموهة بالمينا قد أصابها التدهور مع مطلع القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، بعد أن تدهورت مجمل الأحوال الاقتصادية لدولة المماليك من جراء اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح الذى تحولت إليه تجارة الشرق الأقصى والهند مع أوروبا ، فحرمت مصر والشام من رسوم «الترانزيت» الهائلة التى كانت تحصل على هذه التجارة أثناء عبورها إلى أوروبا ونظراً لأن المشكاوات كانت من البضائع والتحف التى يقبل الأوروبيون على شرائها فى بداية عصر النهضة الأوروبية ، فقد قامت المدن الإيطالية وخاصة البندقية ، بتقليد المشكاوات المملوكية لسد العجز الناجم عن توقف مصر والشام عن انتاجها ، ولم يكتف أهل البندقية ببيع هذه المشكاوات فى أوروبا بل قاموا بتصديرها إلى مصر والشام ، وتحولت البلاد فى غضون سنوات قليلة إلى «مستورد» لهذه «التحف» التى جاءت أكثر خشونة وغلظاً وأبعد عن الذوق الفنى والثراء الزخرفى الذى كان يميز المشكاوات المملوكية ولكنها «عقدة الخواجة» التى أمسكت بتلابيب المسلمين فى عصور الانحدار والتدهور .

وتشهد صناعة الزجاج فى مصر الآن على وجه الخصوص ، محاولات جادة لاستيحاء أشكال المشكاوات فى إنارة المساجد والجوامع والأماكن السياحية وإن حل المصباح الكهربى مكان مصباح الزيت والفتيل . ولابد من الاعتراف بأن هذه المحاولات لم تتجاوز بعد حيز «الشكل» أو «الهيكل»، إلى استخدام ألوان الذهب والمينا والأشكال والموضوعات الزخرفية التى اشتهرت بها المشكاوات المملوكية .

الخوانق والتكايا

كان شهر رمضان ، إذا ما حل تتجه أنظار المسلمين إلى «الخوانق» أو بيوت المتصوفة ، حيث كانت هذه الأبنية أكبر مواقع الاحتفاء الدينى بمقدم الشهر ، فتكثر بها قراءة القرآن ويحتشد سكانها من الصوفية لأداء الفروض الخمسة والتراويح بخشوع ترهب له القلوب وتدمع له الأعين .

ومن المعروف أن إنشاء مبان خاصة لسكن الصوفية تقليد إيرانى انتقل إلى مصر فى عصر الأيوبيين فقد أنشأ صلاح الدين أول خانقاه بالقاهرة وهى المعروفة باسم خانقاه سعيد السعداء من أجل محاربة الدعوة الشيعية التى رعتها الدولة الفاطمية قبله فى مصر، ونجح القائد السنى إلى حد بعيد فى جعل هذه الخانقاوات من مراكز الدعوة السنية التى أزالت كل أثر لعقيدة الشيعة الاسماعيلية فى مصر .

وحذا سلاطين المماليك حذو صلاح الدين فشيدوا المبانى الضخمة لإيواء الصوفية وتكفلوا بالإنفاق على ملبسهم ومأكلهم بل وحملوا عنهم نفقات السفر للحج ، وتنافس أمراء المماليك فى إنشاء الخانقاوات حتى وصل عددها بعد قرنين من حكمهم إلى أكثر من عشرين خانقاه .

وقد زودت منشآت الصوفية بكل ما يحتاجه أهلها ورتبت من أجل راحتهم الكثير من الوظائف التى يتولاها الصوفية أنفسهم سواء من المقيمين بالخانقاه أو من بين المترددين عليها حتى يتحقق للخانقاه استقلالها ويمكن للمتصوفة بها أن يعيشوا بمعزل تام عن المجتمع منقطعين للعبادة . فكانت الخوانق تزود بالمطابخ التى يطهى بها اللحم ، وعادة ما كان لحم الضأن حسب شروط الواقفين .

وفى كثير من المنشآت كان يعمل «الوازن» على ضمان وصول مقرر كل متصوف من الخبز واللحم والمرق حسب تعليمات الواقف ، وكان فى أغلب الأحوال ثلث رطل من اللحم وثلاثة أرطال من خبز القمح يومياً .

وإذا ما تعذر تقديم الطعام للصوفية داخل الخانقاه كان يتم صرف بدل نقدى لهم لتدبير ذلك ، خارجاً عما كان مخصصاً لهم من نقود لغسل ثيابهم بالصابون ، وكان وقتها ترفاً لا يقدر عليه إلا الأغنياء ، وكذلك لدخول الحمام فى كل شهر إن لم يكن مخصصاً لهم حمام برسم خدمتهم وأيضاً لشراء زيت للإضاءة ليلاً .

وجرت العادة فى نصوص أوقاف الخانقاوات أن يأمر الواقف بزيادة النفقات فى شهر رمضان على وجه الخصوص لكونه شهر البر والصدقات . فتزداد نفقات السكر الذى تتضاعف الكميات المستهلكة

منه فى هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى التى كانت توزع فى أيام رمضان ضمن طعام المتصوفة . ولم يقتصر أمر التوسعة فى شهر رمضان على توزيع السكر بل شمل ذلك أيضاً توزيع الطعام المجهز الذى كانت تحدد أصنافه أحياناً بالأرز واللحم والعسل وحب الرمان .

وفى إحدى الخوانق كان يفرق فى كل رمضان على متصوفها «كيزان» لشرب الماء وتبيض لهم قدورهم النحاس ويصرف لهم ما يكفل نظافة أيديهم من وصر اللحم .

وكما هى العادة فى العصر المملوكى لم يكن كل الذين قاموا بإنشاء هذه الخوانق والإنفاق عليها حتى بعد وفاتهم من المشهورين بالصلاح والتقوى، مثلما تلاحظ من وقوع سيرة «ابن غراب» الذى شيد خانقاه على الخليج المصرى «شارع بورسعيد الآن» فقد كان حسب وصف أحد معاصريه «غدارا» لا يتوانى عن طلب عدوه ولا يرضى من نكبته بدون إتلاف النفس، فكم ناطح كبشاً ونال مكانة وعالج جبالا شامخة واقتلع دولا من أصولها الراسخة وهو أحد من قام بتخريب إقليم مصر برفعه سعر الذهب.

ولا يختلف حال الصوفية ، أو معظمهم ، فى عصر المماليك عن حال مؤسسى الخوانق اشتغالا بالدنيا وصغائر الأمور ، إذ أفضى ظلم المماليك وعسفهم من ناحية ، والفقر الذى ساد عامة الشعب من ناحية أخرى إلى الدفع بالكثير من المصريين للإقبال على التصوف تخلصاً من الفقر والفاقه ويأساً من الحياة فضمت بيوت الصوفية الكثير من الدخلاء الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة فى الانقطاع للعبادة ولكن فراراً من قسوة الحياة ورغبة فى الهناء دون عناء .

وكانت النتيجة المنطقية لذلك أن الدنيا شغلت أذهان المقيمين ببيوت المتصوفة ، فابتعدوا عن التصوف والزهد بمعناه الدقيق وانصرفوا عن العبادة إلى البحث عن المال والمتاع فى ظل الأوقاف الواسعة التى تمتعت بها الخوانق حتى وجد من الصوفية من ارتبط بأكثر من خانقاه فى وقت واحد طمعاً فى المال .

وازداد الطين بلة فى العصر العثمانى الذى أصبحت الخوانق فيه تعرف «بالتكايا» ولا زالت كلمة «التكية» تعنى لدى أبناء الشعب المصرى الحصول على رغد العيش دون عمل أو مقابل ، ففى هذه التكايا كانت تمارس كل المعاصى التى تغضب الله وتتفشى الخزعبلات والخرافات التى ليست من صحيح الإسلام .

ورغم ما لحق الخوانق من تدهور بدءا من عصر المماليك . فإنها ظلت حتى مطلع القرن العشرين تقريباً محافظة على التقليد الذى صاحب نشأتها فى مصر ، وهو قصر السكنى فيها على غير المتزوجين إلا الشيوخ من كبار السن فهولاء فقط كان مصرح لهم باصطحاب زوجاتهم لدواعى خدمتهم ومنذ أعيد تنظيم الأوقاف أهمل أمر الخوانق والتكايا وجاء العصر الحديث بمفاهيمه التى وضعت الإسلام مرة أخرى فى خضم الحياة واعتبرت ضمناً أن انعزال المسلم هو خروج عن روح الدين .

❮ ❮ ❮

المصحف الشريف

رمضان هو شهر القرآن فى ليلة القدر منه أنزلت أول آياته على الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وفيه يحرص المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على قراءته آناء الليل وأطراف النهار .

فى البدء كان القرآن محفوظاً فى صدور الصحابة ، ومدوناً على مواد متباينة متعددة ، قد اختلفت فى أحجامها ، كما اختلفت فى مادتها ، فكانت قطعاً كبيرة وصغيرة من العظم ومن الخشب ومن الفخار ومن الحجر ومن جريد النخل ومن جلود الحيوان ومن الكتان ومن الرق .

وبعد استشهاد عدد كبير من حفاظ كتاب الله فى حروب الردة ، قام أبو بكر الصديق بمشورة عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) بجمع القرآن وتدوينه فى صحائف من الرق متشابهة فى الطول والعرض ، متفقة فى النوع ومرتبة بين دفتين ، وتولى ذلك الأمر الصحابى زيد بن ثابت .

وحفظ أبو بكر هذه الصحف لديه مدة حياته وعند وفاته انتقلت إلى عمر بن الخطاب ، ثم بمقتله انتقلت النسخة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين التى عرفت فى عصرها بإتقانها للقراءة والكتابة .

وفى عصر الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) حدث خلاف بين المسلمين فى قراءة القرآن ، فقام الخليفة بعمل نسخ من القرآن ترسل إلى الامصار وتكون أصلا لقراءة كتاب الله وكتابته يرجع إليها كلما دعت الحاجة . ومن أجل ذلك الغرض شكل الخليفة (لجنة) من الصحابة كان من بين أعضائها زيد بن ثابت وقد حددت مهمة هذه اللجنة فى أن تعمل على إخراج نص مكتوب للقرآن الكريم من الأصل المحفوظ عند السيدة حفصة أم المؤمنين ، وأوصى عثمان أعضاءها قائلاً «إذا اختلفتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش» . وهكذا خرج إلى الوجود المصحف العثمانى أو المصحف الإمام ، الذى صار الأصل الوحيد الذى يرجع إليه ويعتمد عليه بعد أن قام الخليفة الأموى مروان بن الحكم بأخذ مصحف أبى بكر من عبد الله بن عمرو وغسل صحائفه ثم شقها وأحرقها كما أحرقت من قبل جميع المصاحف السابقة فى وجودها على تشكيل تلك اللجنة .

وفى عصر عثمان تلقت المراكز الإسلامية المصحف الشريف مكتوباً ومعه صحابى يتلوه على الناس ويبصر أهل كل ولاية بقراءته صحابى تلقاه بدوره من فم النبى صلوات الله عليه . وقد أقبل الناس فى شتى البقاع الإسلامية على نسخ المصحف الإمام اقبالاً عظيماً وانتشر فى طول البلاد الإسلامية وعرضها .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الصحابة قد اختلفوا حول التسمية التى ينبغى أن تطلق على الصحف التى دون عليها القرآن وجمعت بين دفتين ، فقال بعضهم سموه السفر ، وقال آخر رأيت مثله فى الحبشة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف وهكذا ذاعت كلمة «المصحف» للدلالة

على الكتاب المدون به القرآن الكريم .

ومن المعروف أن القرآن دون فى البداية بحروف عربية قريبة فى رسمها من الخط النبطى الذى يعتبر الجد الأعلى للخط العربى والتأمل فى المصاحف الأثرية القديمة يكشف لنا فى وضوح عن مظاهر لا نعرفها اليوم فى كتابتنا العربية ، ففيها حروف يعبر كل واحد منها عن صوتين مختلفين لا صوت واحد مثل حرف الدال فقد يكون (د) أو (ذ) ومثل حرف الراء فقد يكون (ر) أو (ز) وكذلك حروف السين والصاد والطاء والعين والفاء ، ومنها أيضاً حروف يعبر الواحد منها عن عدة أصوات مختلفة مثل حرب الباء فقد يكون (ب) أو (ت) أو (ث) ومثل حرف الجيم فقد يكون (ج) أو (ح) أو (خ) والواقع أن هذه المظاهر ، وعدم إثبات المدات (كالألف واللام) قد أدت «جتمعة إلى لحن البعض عند قراءة القرآن وخاصة من المسلمين غير العرب ، وهو ما دفع «أبا الأسود الدؤلى» أولا إلى ابتكار نقاط تدل على الضمة والفتحة والكسرة والسكون ، وأعقبه بعد ذلك نصر بن عاصم عندما ابتكر تنقيط الحروف المتشابهة بالطريقة المعروفة لنا الآن .

وبذلك كان القرآن دافعاً لتطوير الكتابة العربية وإكسابها الطابع الجمالى المميز ، وهو ما نجد صداه فى المصاحف الشريفة التى وصلتنا من العصور المختلفة ، فجميعها قد كتبت بخط حسن منسوب ، وفى مرحلة لاحقة أصبح المصحف مجالا لتطوير فنون المصحف من خط وزخرفة وتذهيب وتجليد فاستعمل الخط الكوفى المزوى فى كتابة المصاحف خلال القرون الأولى ثم بدأ استخدام الخط النسخى اللين ، ويعد الخطاط البغدادى «ابن البواب» الرائد الأول فى استخدام هذا النوع من الخط فى كتابة المصحف وعنه أخذ الأتراك العثمانيون ، وإلى حد بعيد فإن خط الكثير من المصاحف المتداولة بأيدينا الآن يعد امتداداً فنياً لمدرسة ابن البواب ومدرسة خلفه ياقوت المستعصمى . وإلى جانب الخطين الكوفى والنسخى استعمل النساخون أنواعاً أخرى من الخط العربى مثل خط الطومار والخط المغربى والخط الغبارى .

أما زخرفة المصحف فقد بدأت أولا بزخرفة الفواصل بين الآيات وتمييز بدايات الأجزاء والأحزاب وسرعان ما شقت الزخرفة سبيلها فى بطء وتأن وسارت فى طريقها من البساطة إلى التعقيد حتى استقرت على استعمال زخرفة التوريق (الارابيسك) فى تزيين الصفحات الأولى والأخيرة من المصحف الشريف ، مع صفحات المصحف بإطار زخرفى . ولقد كانت أحب الألوان إلى الفنانين الذين أبدعوا فى تزيين المصاحف هما اللونان الأزرق والذهبى ويلعب هذان اللونان فى الفن الإسلامى دوراً عظيماً سواء استعمل كل لون بمفرده أو اجتمعا معاً فى تحفة واحدة كما هو الحال فى المصاحف .

أما تجليد المصاحف وتذهيبها فقد بلغ شأواً كبيراً بفضل عناية المسلمين وحرصهم على حفظ كتاب الله سواء أكان مدوناً على الرق أو الورق ، وتقف البشرية بكل تقدمها العلمى فاغرة الفاه مما تضمه المتاحف العالمية من روائع جلود المصاحف المزخرفة بالتذهيب أو بالضغط .